



# الرجل

رواية



صنع الله إبراهيم



# اللاجئنة صنع الله إبراهيم

رواية

الطبعة الأولى : دار الكلمة ، بيروت ، ربيع ١٩٨١  
الطبعة الثانية : مطبوعات القاهرة ، ربيع ١٩٨٢  
ملحوظة : تتلأى هذه الطبعة أخطاء الطبعة البيروتية وخاصة فى الاسماء  
الواردة على صفحة ٩٥ .

الغلاف واللوحات الداخلية للفنان صلاح عتاني





بلغت مقر اللجنة في الثامنة والنصف صباحا ، قبل نصف ساعة من الموعد المحدد لى . ولم أجد صعوبة في العثور على الغرفة المخصصة لمقابلاتها . وكانت قى طرفة جانبية هادئة ، كابية الضوء ، يقف أمامها عجوز فى سترة صفراء نظيفة ، تنطق ملامحه بالطمأنينة التى تغشى وجوه من يرقعون راية الاستسلام عندما يجدون أنفسهم فى نهاية المطاف ، فينسحبون من صخب الحياة والصراع الدائر على مظاهرها القانية .

أفضى الى الحارس بأن أعضاء اللجنة لا يتوافدون عادة قبل الساعة العاشرة . ووجدت ذلك امرا طبيعيا ، رغم أنه ضايقنى . وندمت لأنى التزمت بالموعد المحدد بالضبط ، فغادرت فراشى مبكرا دون أن انعم بقسط كاف من النوم .

لم يكن هناك مقعد غير الذى يجلس عليه الحارس ، فوقفت الى جواره ، ووضعت حقيبتي « السامسونيت » على الارض ، ثم قدمت اليه سيجارة وأشعلت لنفسى أخرى . كان قلبى يدق بعنف طيلة الوقت ، رغم محاولاتي للتماسك والسيطرة على اعصابى . وكررت لنفسى اكثر من مرة أن اضطرابى سيفقدنى

الفرصة المتاحة لى ، اذ ساعجز عن تركيز انتباهى وهو ما أحتاج  
اليه بشدة فى المقابلة القادمة .

ضقت بالوقوف بعد قليل ، فحملت الحقيبة فى يدي ، ومضيت  
فى الردهة الطويلة حتى نهايتها . ثم استدرت عائداً وعينى على  
باب الغرفة ، خشية أن تكون اللجنة قد وصلت واستدعتنى . لكن  
الحارس كان مايزال جالسا فى مكانه ، يحدق أمامه بدعة ، وهو  
يحرك فمه الخالى من الانسان كأنما يلوك شيئاً وهمياً .

عدت أذرع الطريقة جيئةً ونهايا وأنا أتطلع الى ساعتى بين  
الفينة والآخرى . وكانت عقاربها قد اقتربت من العاشرة والنصف  
عندما رأيت الحارس ينتفض واقفاً ويضع سيجارته على الأرض  
أسفل المقعد ، ثم يدير مقبض باب الغرفة ويفتحه بحذر ، ثم يختفى  
وراءه .

أسرعت أتخذ مكانى الى جوار مقعد الحارس وقلبي يدق  
أسرع من ذى قبل . وتوقعت أن يطلب منى الدخول عندما يخرج ،  
لكنه لم يفعل ، وإنما عاد الى كرسيه بعد أن تناول سيجارته ،  
وواصل التدخين فى هدوء .

حزمت أمري أخيراً وسألته بلطف عما اذا كانت اللجنة قد  
وصلت ، فقال :

« واحد منهم فقط . »

تساءلت : « لكنى لم أر احداً يدخل الغرفة ؟ »

أجابنى : « هناك باب آخر يدخلون منه . »



بقيت واقفا الى جواره نصف ساعة ، تتابع خلالها وصول  
اعضاء اللجنة عن طريق الباب الداخلى . ومضى الحارس عدة  
مرات الى البوفيه ليحضر لهم القهوة . وفى كل مرة كنت أحاول  
اختلاس النظر داخل الغرفة ، لكنه كان يحرص دائما على ألا  
يكشف الباب الا عن فرجة يسيرة تسمح له بالدخول ، بعد أن  
يحشر نفسه خلالها ، دون أن تكشف لى عن شىء .

وفى إحدى المرات برز من الغرفة وهو يحمل فى يده حذاء  
جلديا . ونادى على ماسح احذية يقف فى نهاية الردهة ، فأعطاه  
الحذاء . وعندما أراد هذا ان يقتعد الأرض قرب الباب ، نهره  
الحارس وأشار اليه أن ينتحى بعيدا حيث كان يقف .

عاودت السير وأنا أنقل حقيبتى من يد الى أخرى . كنت  
متعبا لأنى لم أتم جيدا بالامس رغم الحبة المنومة التى تناولتها .  
ولهذا السبب كان هناك صداع خفيف يحوم عند مؤخرة رأسى .  
ولم اكن قد حسبت حسابا لهذا الطارىء ، رغم أنى لم أفعل شيئا  
طوال العام الماضى كله سوى الاستعداد لاحتمالات اليوم . ولم  
أجرؤ على مغادرة مكاني بحثا عن مسكن ، خشية أن تستدعيني  
اللجنة خلال ذلك .

اقتريت اثناء سيرى من مكان ماسح الأحذية الذى أقبل  
ينظف بحماس حذاء اللجنة . ( هكذا أسميته فى سرى وأعجبته  
التسمية حتى انى ابتسمت ) . ورأيته قد انتهى من تلميع وجه  
الحذاء ، فقبله ومضى يطلى نعله السفلى .

استدرت عائدا الى حيث يجلس الحارس ، فوضعت حقيبتى  
الى جواره على الأرض . وناولته سيجارة ثم أشعلت واحدة ،  
وبقيت الى جواره أدخن . ولم يلبث الماسح أن انتهى من الحذاء ،

فأحضره الى الحارس الذى تناوله بعناية وحمله الى الداخل .  
وخرج بعد قليل حاملا صينية امتلأت بقناجين القهوة الفارغة ،  
فمضى بها الى البوفيه ، ثم عاد الى مكانه فوق الكرسى .

ولما كنت أنا الوحيد الذى ستستقبله اللجنة اليوم ، لسبب  
بسيط وهو أن الماعة أشرفت على الحادية عشرة والنصف ، دون  
أن ينضم الى أحد ، فقد خطر لى أنها تناقش أمرى الآن . وكانت  
هذه فكرة مزعجة للغاية . لأن معناها ، ببساطة ، أن تتكون لديها  
صورة مبدئية عنى . وإذا كانت هذه الصورة سلبية ، وهو الاحتمال  
الغالب لأسباب عديدة ، فإن ذلك من شأنه أن يضيق من فرصة  
التأثير الذى يمكن أن أحدثه عندما أمثل أمامها . كنت أعرف أن  
لديها تقارير كافية عنى ، ومع ذلك فقد فهمت أن مصيرى يتوقف  
على المقابلة القادمة . وليس معنى هذا أنى الذى سعيت الى هذا  
اللقاء ، وإنما قيل لى أنه لا مندوحة منه . ولهذا جئت .

وعند الظهر تماما ، دخل الحارس الغرفة ، ثم خرج على  
الفور وسألنى عن اسمى . وعندئذ أشار الى بالدخول .

تناولت حقيبتى بيدي اليمنى ، وبيدى الاخرى تحسست رباط  
عنقى لأتأكد من أنه فى المكان الصحيح . ورسمت على وجهى  
ابتسامة واثقة ، ثم وضعت يدي على المقبض الأبيض المصنوع من  
الخزف ، الذى تطلعت اليه عشرات المرات فى غضون الساعات  
الثلاث الماضية ، وأدركته دافعا الباب الى الداخل ، وولجت  
الغرفة .

• وللوهلة الاولى ارتكبت غلطتين •

ففى اضطرابى ، الذى جاهدت عبثا أن أخفيه ، نسيت أن  
أغلق الباب خلفى . وعندئذ سمعت صوتا نساءيا بالقرب منى يقول  
بلهجة رقيقة :

« اغلق الباب من فضلك » .

اندفع الدم حارا الى وجهي ، واستدرت الى الباب ، فأمسكت مقبضه بيدي اليسرى ودفعته الى الخارج ، لكنه لم ينغلق .

كان المصراع قديما يتطلب اغلاقه قليلا من الضغط . وكانت يدي اليمنى مشغولة بالحقيبة ، فاستخدمت ركبتى للضغط عليه ، بينما تصبب العرق على جبينى .

عندئذ سمعت نفس الصوت النسائي الرقيق يقول :

« ضع الحقيبة على الأرض واستخدم يديك الأثنتين » .

وأدركت أنى خسرت الجولة الأولى .

كنت أعرف أن اللجنة ستوجه الى بعض الاسئلة . لكن هدفها لم يكن قاصرا على تبين مدى معلوماتى ، وانما يمتد الى استكناه مفاتيح شخصيتى وحجم قدراتى الذهنية . فمضمون الاجابة ليس هو كل شئ ، رغم ماله أيضا من وزن ، والأهم ، منه هو القدرة على المواجهة .

وكما سبق أن قلت ، فقد قضيت العام الماضى فى الاستعداد لهذا اليوم بشتى الوسائل . فعكفت على دراسة اللغة التى تستخدمها اللجنة فى مقابلاتها ، وراجعت معلوماتى فى مختلف المجالات ، فقرأت فى الفلسفة والفن والكيمياء والاقتصاد . ووجهت الى نفسى عشرات الاسئلة المتباينة ، وأنفقت اياما وليال فى البحث عن اجاباتها . وتابعت برامج الذكاء والفوازير التى يذيعها التلفزيون ، وراجعت الابواب المماثلة فى الصحف والمجلات . وأسعفتى الحظ عندما اكتشفت أن اخى ، الذى يكبرنى بعشرين عاما ، يحتفظ لديه ، فى حزمة يضمها خيط من المطاط ، بمجموعة « صدق او لا تصدق » الكاملة ، منذ بدأ نشرها قبل ثلاثين عاما .

ولم أكتف بهذا ، فحاولت أن أكون فكرة واضحة عن عمل اللجنة ، بالبحث عن مثلوا أمامها من قبل . ورغم ثقتي من كثرتهم فاني لم أتوصل الى غير قليلين منهم ، نفي أغلبهم أنه تقدم الى اللجنة في يوم من الايام ، بل أنكر معرفته بوجودها . وتذرع الآخرون بأنهم نسوا تفاصيل ما جرى معهم ، فجاءت أقوالهم عائمة ، متضاربة . ولم تساعدني الشذرات الاخرى التي التقطتها من مصادر مختلفة على استخلاص شيء . الأمر الوحيد الذي خرجت به ، أنه ليس ثمة قاعدة محددة لعمل اللجنة .

وعندما سعيت لجمع المعلومات عن أعضائها ، لعلي أستطيع تكوين فكرة عن اتجاهاتهم وميولهم ، وجدت ستارا من السرية المحكمة قد أسدل على أسمائهم ومهنتهم . وكان كل من سألته عنهم يتطلع الى في وجوم واشفاق بالغين .

لكن الجميع اتفقوا على أن اللجنة تنصب شراكا ماهرة لكل من يمثل أمامها . ومعنى هذا أن حكاية الباب واغلاقه لم تكن مصادفة . فهي قد كشفت لهم ، والمقابلة لم تبدأ بعد ، عن ارتباكى وقلة حيلتى .

ولكم أن تتصورا حالتي بعد هذه التجربة الفاشلة ، وقد وقفت أمامهم غارقا في عرقي . لكن أعرب ما في الموضوع أنني لمسنت في أعماقي شعورا بالارتياح لهذا الفشل . كأنما كان ثمة جزء من نفسي يخشى على نفسه من نجاحي . ولم يحل ذلك دون اضطرابي او رغبتى الجارفة في كسب رضاء هؤلاء الذين اصطفوا أمامى الى مائدة طويلة بعرض القاعة .

كان عددهم كبيرا حقا . ولأني كنت عاجزا عن التركيز ، فلم أتمكن من احصائه بالضبط . وكان بعضهم منهكما في أحاديث

جانبيه هامسة ، والبعض الآخر يتصفح اوراقا أمامه . وأغلبهم يضع عوينات سوداء كبيرة على عينيه . وخيل الى أن بينهم وجوها مألوفة ، طالعتني من قبل على صفحات الجرائد والمجلات . واكتشفت أيضا أنني أعرف صاحبة الصوت الرقيق ، فهي عانس المتقيت بها في إحدى المناسبات . ولت نفسي على أنني لم أولها - حينذاك - شيئا من الاهتمام . وكانت تتطلع الى الآن بابتسامة خلت أنها ودية .

ولم أدهش عندما رأيت بينهم ثلاثة من العسكريين . وكانت الشرائط الحمراء الموشاة بالذهب فوق ياقات ستراتهم تنطق برفعة شأنهم .

وكان يتوسطهم عجوز متهالك ، ذو عوينات طبية سميكة ، قرب منها ورقة في يده حتى أوشكت أن تلامسها ، واستغرق في محاولة القراءة . وقدرت أن الورقة تنتمي ولا شك الى الملف الخاص بي .

فرغ العجوز من القراءة ، أو لعله ينس من المحاولة ، فوضع الورقة على المائدة ، واستدار بوجهه ناحية اليسار ثم ناحية اليمين ، فأدرك زملاؤه أن الجلسة بدأت ، وكفوا عن الكلام وهم يملطون نظراتهم على .

تعلقت عيناى بشفتى العجوز . وبدأ لى وجهه الشاحب أبعد ما يكون عن الحياة .

خاطبني قائلا : « في بداية هذا اللقاء ، أحب أن أسجل تقديرى ، الذى يشاركنى فيه زملائى ، لاختيارك المجيء الينا . وليس معنى هذا أننا سنأخذ ، حتما ، بوجهة نظرك . فهذا أمر يتوقفنا على أشياء كثيرة ، ونحن هنا اليوم لنحسمه . انمسا ما أردت أن أوضحه فهو أن المثول أمام لجنتنا ، كما يعلم الجميع ، ليس اجباريا . ففي هذا العصر يتمتع كل انسان بحرية تامة في

الاختيار . ويعكس هذا الاختيار من جانبك قدرا كبيرا من سلامة التفكير ونفاذ البصيرة . وهو مؤشر هام سنأخذه في اعتبارنا عندما نبحث حالتك . الا أننا نود أولا أن نسمع وجهة نظرك في هذا الشأن ، .

كنت أعرف مما سمعته من مختلف المصادر ، أن اللجنة تطالب الماثلين أمامها دائما بعرض للأسباب والدوافع التي حملتهم على التوجه اليها . ولهذا السبب أعددت الاجابة مقدما .

وكننت قد توقعت أن تكون اللجنة على ادراك بأنى سأفعل ذلك ، ولهذا فكرت طويلا قبل أن أستقر على الاجابة الضرورية . فلم أشأ أن أقدم اليهم اجابة مبتذلة سمعوها من قبل ، هدفها الظاهر هو تملقهم ، انما أردت أن أقدم اليهم اجابة متميزة ، تبدو بسيطة وتلقائية ، كأنما فوجئت بالسؤال ، وتنطق بشيء من الامانة والصدق ، أعطى فيها صورة دقيقة عن نفسى ، دون أن أتورط فى الحديث عن أشياء معينة ، مثل الدوافع الحقيقية لبعض الافعال ، وانما أشير الى هذه بطريقة تخلى مسؤوليتى عن كل ما من شأنه أن يسئ الى ، وتجعلهم يستنتجون ما أتصور أنه سيلقى قبولا لديهم .

وكانت تلك فى الواقع مهمة شاقة للغاية ، بالنظر الى ما لديهم من وسائل خاصة وامكانيات واسعة ، تتيح لهم معرفة كل شيء عنى .

بلعت ريقى عدة مرات ثم شرعت أتكلم ، وخرج صوتى خافتا ، فمال العجوز الى الامام واضعا يده على أذنه اليمنى وقال :

« عفوا . انى لا أسمع جيدا باحدى أذنى . فهل لك أن ترفع صوتك ؟ » .

أذعنت لطلبيه ومضيت أبسط الاجابة التي أعددتها من قبل .  
وغنى عن البيان أنى نسيت جزءا كبيرا منها بسبب اضطرابى من  
ناحية ، وصراعى مع لغتهم - كى لا أرتكب اخطاء فادحة فى  
قواعدها - من ناحية أخرى .

المهم أنى رسمت لهم صورة عامة لتشأتى ، والمسار الذى  
اتخذه تطور حياتى وفقا لظروف لم يكن لى فيها خيار كبير ، وان  
كنت مسوقا أيضا باحلام عريضة ، وبالرغبة فى تنمية مواهبى  
واستغلالها على أحسن وجه - ولم يفتنى أن أنوه بالمثل والمبادئ  
الاخلاقية التى كنت أسترشد بها .

انتقلت بعد ذلك الى المحنة التى وقعت لى وعرضتلى للمرض ،  
وقلت أن مرضى ، فى الغالب ، كان نتيجة للتباين الشاسع بين  
طموحاتى وقدراتى الحقيقية ، وأنه أدى بى الى أن أضيق ذرعا بكل  
شئ ، حتى لم يعد أمامى من مخرج سوى أن أغير حياتى تغييرا  
تاماً .

وأشفعت حديثى بحركة مسرحية تدربت عليها ، ان تناولت  
حقيبتى وفتحتها ، ثم أخرجت منها مجموعة من الشهادات التى  
حصلت عليها من مصادر مختلفة ، تنوه بكفاءاتى ، وتؤكد صحة  
المعلومات التى قدمتها عن نفسى .

ولما كانت أغلب هذه المواد باللغة العربية ، فقد انطلقت  
أتحدث عنها بلغة اللجنة ، فاستمعوا الى باهتمام وهم يتصفحون  
الاوراق التى وضعتها أمامهم . لكنى لاحظت أن العضو الجالس  
الى يسار العجوز ، وهو أشقر الشعر ملون العينين ، لم يعبأ بهذه  
الشهادات ، وانهمك فى تصفح ملف يضم ولا شك التقارير السرية  
بشأتى .

رفع عضو قصير القامة قببج الوجه رأسه نحوى ، وكان  
يجلس الى يمين الرئيس ، بينه وبين أحد العسكريين ، وخاطبنى  
فى لهجة عدائية :

« أنا لا أستطيع أن أفهمك • فأنت فيما يبدو قطعت شوطا بعيدا • وها أنت في هذه السن تسعى وراء بداية جديدة • ألا تظن أن الوقت قد فات لذلك ؟ » •

أجبتة بلهفة : « ان الكثيرين يبدأون حياة جديدة بعد الأربعين • ثم أنها ليست بداية جديدة بمعنى الكلمة ، وانما هي تنويج للمسيرة السابقة ، واستثمار شامل للإمكانات المختلفة التي أملكها ، ومن زوايا عديدة يمكن اعتبارها تطورا طبيعيا لشخصيتي » •

همهم القصير غاضبا • وعجبت لحقده على • وأحسست احساسا مبهما ، أنى أثرته عندما أبرزت مواهبى ، ودللت عليها بالشهادات الصادرة من جهات محترمة ذات نفوذ •

وتتبعته هذا الخط من التفكير ، فقدرت أنه ربما وقف موقفى فى صدر شبابه ، وأجازته اللجنة ، لكنه فشل فى تحقيق الآمال المعقودة عليه ، وانتهى به الأمر الى أن يكون مجرد عضو من أعضائها • ذلك أنه بالرغم من خطورة اللجنة وضخامة نفوذها ، فان البعض ، وأنا منهم ، يعتبرون عضويتها دليلا على نضوب الموهبة والفشل التام •

تكلمت احدى السيدات وهى عجوز وقور ، كانت تجلس فى أقصى اليسار ، الى جوار رجل بدين يرتدى سترة بيضاء ويضع ساقا على ساق رافعا رأسه الى أعلى محدقا فى السقف كأنه ليس معنا • سألتنى :

« هل تعرف الرقص ؟ » •

أجبت : « أجل ، بالطبع » •

فتدخل الرجل القصير الغاضب قائلا :



« أرنا اذن » .

سألته : « أى أنواع الرقص ؟ » .

وأدرکت أنى أخطأت بالدسؤال . أى نوع من الرقص حقيقة !  
كما لو كان ثمة غيره .

تصرفت بسرعة وبراعة طمعت فى أن تشهدا لصالحى .  
فعندما لم أجد ما أحزم به وسطى ، خلعت رباط رقبتى ، وعقدته  
حول خصرى فوق عظام الحوض مباشرة ، حيث يتمتع الجسم  
بمرونة بالغة . وراعيت أن أجعل العقدة على الجانب ، كما تفعل  
الراقصات المحترفات ، وسرعان ما اكتشفت أن لهذا الوضع ميزة  
كبيرة ، فهو يكاد يفصل البطن عن الردف ويعطى لكل منهما قدرة  
كبيرة على الحركة المستقلة .

انطلقت أهز وسطى وأنا أرفع كعبى قدمى قليلا عن الأرض ،  
متطلعا اليهما من فوق كتفى بينما أشرعت نراعى الى أعلى  
وشبكت يدى فوق رأسى . ورقصت فى حماس بعض الوقت ، بل  
حاولت أن أطرق بأصابع يدى ، بعد أن ضمنت سبابتيهما . وكنت  
منهمكا فى ذلك فلم أعرف انطباع الأعضاء .

تكلم الرئيس الذى لا يسمع ولا يرى ، فجأة قائلا وهو يلوح  
بيده : « كفى » .

عندئذ مال أحد العسكريين ، الذى كاد وجهه يختفى تماما  
خلف عوينات سوداء كبيرة ، وخاطبنى قائلا :

« اننا نعرف من الاوراق التى أمامنا كل شىء تقريبا عنك .  
لكن هناك شىء واحد ما زلنا نجهله ، وهو أين كنت فى ذلك العام .  
فهل لك أن تخبرنا ؟ » .

تشاغلتي ينزع رباط عنقي عن خصري وعقده حول رقبتى  
وأنا أفكر بسرعة فى العام الذى يعنيه ، ففى حدود معرفتى بلغة  
اللجنة ، لم يكن اسم الاشارة الذى استخدمه يشير الى العام الذى  
نحن فيه ، وطالما أنه لم يذكر عاما بعينه ، فلا بد أنه تعمد ذلك ،  
وبهذا يكون الامر شركا نصب لى ، خاصة وأنى لا أتصور أن يكون  
ثمة نقص فى التقارير المرفوعة عنى .

لم يكن فى وسعى أن أستفسر عن العام الذى يقصده ، والا  
أكون قد وقعت فى الفخ . وتعين على أن أحدهه بمفردى وباسرع  
مايمكن .

بدت لى المسألة صعبة للغاية ، وقررت أن المخرج الوحيد  
هو أن أستبعد بعض الاعوام المحتملة مثل ٤٨ و ٥٢ ، على أساس  
عمرى فى ذلك الحين ، وبذلك أضيق من دائرة البحث . بقيت  
أمامى أعوام ٥٦ و ٥٨ و ٦١ و ٦٧ . وقبل أن ينتابنى اليأس  
خطرت لى اجابة موجزة لا تبعد عن الحقيقة كثيرا .

قلت : « فى السجن » .

ويظهر أن اجابتي ، على ايجازها ، كانت مفحمة ، فلم  
يسألنى أحد شيئا ، وتبدد جانب من الجو العدائى الذى جابهنى فى  
البداية ، او هكذا خيل لى . وان كنت قد احترت فى تفسير النظرة  
التي لمحتها فى العينين الملونتين للعضو الاشقر . وهىء لى أن بها  
شيئا من السخرية .

رأيته يخط بقلم أحمر على ورقة أمامه ، ثم مال على الرئيس  
العجوز وهمس له شيئا فى أذنه اليسرى التي تجيد السمع ، وهو  
يناول الورقة للقصير .

خاطبني الرئيس فى لهجة حازمة :

« لقد استمعنا منك الى حديث طويل عن مواهبك وقدراتك .  
لكن لدينا هنا تقريراً يقول أنك لم تتمكن من ممارسة الجنس مع  
سيدة معينة . والتقرير لا تشويه شائبة ، فقد رفعته نفس السيدة  
التي تعرضت لهذا الموقف ، فما تفسيرك له ؟ » .

أخذنى هذا السؤال على غرة . وشعرت بالحيرة ، لأن هذا  
الطارئ لم يعرض لى مع سيدة واحدة فقط ، وإنما مع عدد منهن  
ولأسباب مختلفة . ولما كانت اللجنة دقيقة فى عملها فلا بد أن  
تكون اجابتي محددة . وكيف يكون ذلك وأنا لا اعرف السيدة التى  
يعينها ؟

كان العضو القصير ، بدافع من حقه على ، هو الذى  
أنقذنى من الاجابة . فلم يملك نفسه وصاح :

« ربما كان عنيماً . » .

لكن ذا الشعر الأشقر لم يشاطره الرأى ، فقد انحنى على  
اذن الرئيس قائلاً :

« هو فى الغالب . . . » .

لم أسمع بقية الجملة ، لكنى لم أجد صعوبة فى تخمينها .

أشار الى صاحب الشعر الأشقر أن اقترب بحيث أقف  
أمامه ، ثم أمرنى بأن أخلع بنطلونى ، ففعلت . ووضعت بنطلونى  
على حافة مقعد فارغ ، ثم وقفت أمامهم بسروالى الداخلى القصير  
والجورب والحذاء .

ظلوا يتطلعون الى كما لو كانوا ينتظرون شيئاً ، فمددت  
يداى الى سروالى الداخلى متسائلاً :

« وهذا أيضا ؟ » .

أوماً الأشقر برأسه فخلعت السروال ووضعته فوق البنطلون  
بينما استقرت أنظار أعضاء اللجنة على الجزء العارى من جسدى  
يتأملونه باهتمام .

ولم يلبث الأشقر أن طلب منى أن أستدير وأعطيه ظهري .  
ثم أمرنى أن أنحنى . وشعرت بيده على اليتى العارية . وأمرنى  
أن أسعل . وعندئذ شعرت باصبعه داخل جسدى .

اعتدلت واقفا بعد أن سحب الرجل اصبعه وعدت أواجههم  
فرايت الرجل الأشقر يتطلع الى الرئيس قائلاً فى انتصار :

« ألم أقل لك ؟ » .

ابتسم العجوز لأول مرة ، وانطلق الجميع يتكلمون فى وقت  
واحد . وساد الهرج القاعة ، فلم اتبين شيئاً مما يقولون . واخيراً  
دق الرئيس على المائدة بقبضة يده ، فتوقف الكلام . وعندما هدأت  
الضجة تماماً خاطبني قائلاً :

« ان القرن الذى نعيش فيه هو بلا شك أعظم عصور التاريخ  
سواء من حيث ضخامة وقائعه وعددها ، أو من حيث الآفاق التى  
تنتظره . فبأى شىء من هذه الوقائع ، كالحروب والثورات  
والابتكارات ، سيذكر قرننا فى المستقبل ؟ » .

رحبت بهذا السؤال رغم صعوبته ، لأنى وجدت فيه فرصة  
لاستعراض معلوماتى فى موضوعات محببة لى .

قلت : « هذا سؤال قيم • وبوسعى أن أذكر أمورا كثيرة ذات  
خطر • »

تدخل نو الشعر الأشقر موضحا :

« اننا نريد أمرا واحدا ، ولا بد أن تكون له صفة العالمية من  
حيث ماهيته او دائرة نفوذه ، فضلا عن قدرته على تجسيد المعانى  
السامية والخالدة لحضارة هذا القرن • »

ابتسمت وأنا اقول : « وهنا وجه الصعوبة ياسيدى • فمن  
الممكن أن نذكر مارلين مونرو • لأن هذه الفاتنة الامريكية كانت  
حدثا عالميا حضاريا بمعنى الكلمة • لكنه حدث عابر ، ولى أمره  
وانتهى • فمقاييس الجمال تتغير كل يوم على يد اشخاص موهوبين  
مثل ديور وكاردان • والكائن الانسانى نفسه فان • وهى خاصية  
تنأى بنا عن اختيار البترول العربى الذى سينضب بعد سنوات  
قليلة • ويمكن أن نذكر غزو الفضاء سوى أنه لم يتمخض بعد عن  
شئ ذى قيمة • ونفس المعيار يجعلنا نستبعد الكثير من الثورات •  
ربما خطر لنا أن نتوقف عند فيتنام ، وهو مالا أحبذه لما سيجرنا  
اليه ذلك من مداخلات ايدولوجية لا ضرورة لها •

« أقول كل هذا لأنكم طلبتم أمرا سينكر به قرننا فى المستقبل •  
أولا يتحقق هذا ، اذا ما وجد الشئ نفسه فى المستقبل ليكون  
تذكرة دائمة بنفسه ؟

« وهذا يقودنا للبحث فى اتجاه آخر • وسنعثر بغير صعوبة  
على الطريق السليم • لكنه للأسف طريق طويل مزدحم ، كالطريق  
المؤدى الى المطار ، بلافتات كثيرة تحمل أسماء شديدة التنوع مثل  
فيليبس ، توشيبا ، جيايت ، ميشلان ، شل ، كوداك ، وستنجهاوز  
فورد ، نسله ، مالبورو •

« وأظنكم توافقونني أيها السادة ، على أن العالم كله يستخدم الابتكارات التي تحمل هذه الأسماء . كما أن الشركات العملاقة. التي تنتجها تستخدم العالم بدورها ، فتحول العمال الى آلات ، والمستهلكين الى ارقام ، والأوطان الى اسواق . وهي بذلك نتاج ذو خطر لمنجزات قرننا العلمية والتكنولوجية . كما أنها غير معرضة للفناء أو التضوب ، فقد وجدت لتبقى .

« فأيتها اذن نختار ؟ »

توقفت لحظة محسوبة وأنا أتطلع اليهم . ثم أجبت بطريقة مسرحية :

« ولا واحدة ! »

سرت همهمة بين الأعضاء فتجاسرت ورفعت يدي قائلاً :

« مهلا أيها السادة . لم أقصد أني عاجز عن الاجابة على سؤال لجننتكم الموقرة ، وانما أردت أن أقول أن الاجابة ليست فيما ذكرت لكم عن أسماء » .

توقفت لحظة ثم استطرقت :

« سأذكر لكم أيها السادة ، ردا على سؤالكم ، كلمة واحدة وان كانت منصفة ، هي « كوكا - كولا » .

انتظرت أن أسمع تعليقا ما أتبين منه اثر اجابتي ، لكن الصمت ران عليهم . عندئذ مضيت في حديثي :

« لن نجد ، أيها السادة ، بين كل ما ذكرت شيئا تتجسد فيه حضارة هذا القرن ومنجزاته بل آفاقه ، مثل هذه الزجاجاة الصغيرة الرشيقة التي يتسع است كل انسان لرأسها الرفيعة » .

ابتسمت لهم منتظرا أن يشاركونى الابتسام لمحاولتى فى  
الفكاهة ، لكنهم ظلوا يتطلعون الى فى جمود ، فاستطردت :

« انها موجودة فى كل مكان تقريبا ، من فنلندة والاسكا فى  
الشمال ، الى استراليا وجنوب افريقيا فى الجنوب . ولقد كان  
نبأ عودتها الى الصين بعد غيبة استمرت ثلاثين عاما ، من الانبياء  
المدوية التى سيصاغ منها تاريخ هذا القرن . وفى الوقت الذى  
تختلف فيه كلمات الله والحب والسعادة من بلد الى آخر ، ومن  
لغة الى غيرها ، تعنى الكوكاكولا نفس الشئ فى كل مكان ،  
وبكافة اللغات . والى جانب هذا فان المادة التى تصنع منها لا يهددها  
شئ بالنضوب ، لأنها نبات يمكن زراعته بسهولة ، والذوق الذى  
يستسيغها لن يتحول عنها بفضل ما تتميز به من قدرة على تكوين  
عادة تقرب من الادمان .

« ومنذ ظهورها ، ارتبطت الكوكا كولا بالعالم الرئيسية  
للعصر ، بل وساهمت أحيانا كثيرة فى صياغتها . فقد توصل  
الصيدلى الأمريكى « بمبرتون » الى تحضيرها بمدينة أتلانتا ،  
عاصمة ولاية جورجيا ، مسقط رأس الرئيس الأمريكى كارتر ،  
وعصابات كلو - كلوس كلان الشهيرة ، فى سنة ١٨٨٦ ، وهى  
نفس السنة التى تم فيها نحت تمثال الحرية الشهير ، الذى أصبح  
رمزا للعالم الجديد .

« أما الزجاجاة نفسها ، فهى احدى ثمار أول حرب تحريرية  
تخوضها الولايات المتحدة خارج حدودها ، بعد انتصارها فى  
الداخل على الهنود الحمر ، وهى الحرب ضد اسبانيا فى كوبا ،  
والتي انتهت عام ١٨٩٩ بإعلان « استقلال » كل من كوبا  
وبورتوريكو والفيليبين . وفى كوبا شهد جندى اميركى - يحمل  
بالصدفة اسم المفكر الأمريكى العظيم للقرن السابق ، بنيامين

فرانكلين - زجاجة مياه غازية من شراب الموز . وتمكن فور عودته الى بلاده ، من الحصول على امتياز تعبئة الاختراع الجديد في زجاجات ، تعددت اشكالها حتى استقرت أخيرا على الشكل الشهير المعروف « بالمرأة ذات الثوب الضيق » .

« وربما كانت الكوكاكولا هي أول من حطم المفهوم القديم للاعلان ، الذي كان قاصرا على مجرد بيان بمواصفات السلعة ، واضعة بذلك حجر الاساس في البناء الشامخ لأحد فنون العصر القاندة ، وأعني بذلك فن الدعاية . لكن المؤكد أنها هي التي قضت على الوهم الذي ساد طويلا بشأن العلاقة بين العطش ودرجة الحرارة ، عندما ابتدعت وروجت شعار « العطش لا يعرف فصلا » . وكانت سباقة الى استغلال الراديو ، والى اضاءة المدن بالاعلانات الضوئية ، وتبنى البرامج التليفزيونية والافلام السينمائية ، واحتضان نجوم الدنيا الجديدة ومعبوديتها الجدد من ممثلين وخنافس ورواد للمروك والتويست والبوب .

« وخاضت الكوكاكولا غمار حربين عالميتين ، خرجت منهما منتصرة . فقد باعت خمسة مليارات من الزجاجات خلال السنوات السبع للحرب الثانية . ثم أنها دخلت اوروبا على جناح مشروع مارشال الذي ساعد الأوروبيين بالمنتجات والقروض الاميركية على تغطية ما سببته الحرب من عجز في الدولارات .

« واذ استقرت فوق قمة المجتمع الاستهلاكي ، الى جوار سيارة فورد وقلم باركر وولاعة رونسون ، لم تفقهما التغيرات المتلاحقة في عالم اليوم . فعندما بدأ عصر الشراء العظيم والبيع بالتقسيط والتنافس على اكبر سيارة وأحدث طراز منها بأكبر مساحة في الخلف تستوعب أكبر كمية من السلع لتملأ أكبر ثلاجة، تقدمت الكوكا كولا بالزجاجة العائلية « الماكسي » .



« وعندما اشتركت الولايات المتحدة في حرب تحريرية جديدة في كوريا ، ابتكرت الكوكا كولا علبيتها الصفيح ، حتى يمكن القاؤها بالمظلات الى الجنود . ولم تقتصر اهمية هذه العبوة على أن صورة الاميركي الذي يفتحها ياسنانه أصبحت رمزا للبطولة والرجولة ، أو على أنها أثبتت فاعليتها في الحرب التالية بقيتنا ، وانما تعدت كل ذلك الى ما هو أخطر ، قدشنت عصر الفوارغ ، الذي يرمى فيه المستهلك بعبوة السلعة بعد أن ينتهي من استخدامها .

« ولا شك أن نجاح الكوكا كولا يرجع أساسا الى حسن التنظيم ، الذي ابتكرت له منذ البداية الشكل الهرمي ، حيث توجد الشركة الاصلية في القمة ، وتتابع تحتها ، حتى القاعدة ، شركات مستقلة تتولى التعبئة والتوزيع . وقد مكنها هذا الشكل الفريد من الحصول على التمويل اللازم لتغطية السوق الأميركية في أول عهدها ، ثم ساعدها فيما بعد على الافلات من حملة روزفلت ضد الاحتكارات ، وأتاح لها أخيرا أن تغزو العالم .

« فهي تعتمد في فتح الاسواق العالمية على إقامة مؤسسات محلية مستقلة في كل بلد ، يؤلفها أشهر الرأسماليين به . وقد حققت هذه الخطة نتائج هائلة ، ليس أقلها اضعاف الصبغة الوطنية على الزجاجاة الأميركية .

« ولعلكم سمعتم بقصة الياباني الذي تمايل طربا عندما قدموا اليه زجاجة كوكا كولا في أحد مطاعم باريس ، إذ ظن أن ادارة المطعم كرمته بصفة خاصة فأحضرت له مشروبه القومي بالطائرة من طوكيو .

« ولزيد من الدلالة على ما لهذه الزجاجاة من خطر ، فاني احيلكم أيها السادة الى المقال الذي نشرته جريدة

« الموند ديبلوماتيك » الفرنسية المعروفة فى عدد نوفمبر/تشرين الثانى ١٩٧٦ وذكرت فيه أن رئيس شركة الكوكا كولا هو الذى أعد - منذ زمن بعيد - وبالإشتراك مع عدد آخر من رؤساء الشركات الأميركية الضخمة ، جيمى كارتر ليكون مرشحا لرئاسة الولايات المتحدة .

« ويقول المقال ، الذى قرأتموه ولا شك ، أن رؤساء الشركات المذكورة كونوا لجنة من عشرة سياسيين - بينهم الرئيس الاميركى نفسه ونائبه والتر مونديل - لتمثيل الفرع الاميركى لما يسمى « باللجنة الثلاثية » ، التى أسسها عام ١٩٧٣ دافيد روكفلر ، وتولى ادارتها حتى فترة قريبة جدا ، البروفسور زيغنيو بزجينسكى مستشار الامن القومى للرئيس الاميركى . أما لماذا سميت اللجنة بالثلاثية فلأنها تجمع أميركا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان فى هدف محدد هو مواجهة العالم الثالث وقوى اليسار فى أوروبا الغربية .

« وانا كان هذا هو نفوذها على أكبر وأغنى دولة فى العالم، فلکم اذن تتصوروا وضعها فى بلدان العالم الثالث ، وخاصة بلادنا نحن الصغيرة الفقيرة .

« والواقع أن من حقنا أن نصدق مايقال عن هذه الزجاجة البريئة المظهر ، وكيف أنها تلعب دورا حاسما فى اختيار طريقة حياتنا ، وميول أذواقنا ، ورؤساء بلادنا وملوكها ، بل والحروب التى نشترك فيها ، والمعاهدات التى نوقعها » .

خيل الى أن الوجود سيطر على اللجنة ، وقدرت أن السبب ربما يعود الى أبنى ، وقد خلب الموضوع لى ، أطلت الحديث أكثر مما يجب . لكنى لم ألبث أن أحسست احساسا مبهما بأنى « قد

وطأت قدم أحدهم » ، وهو تعبير دارج فى لغة اللجنة ، يستعمل للدلالة على الشخص الذى يرتكب اساءة أو خطأ عن غير قصد .

كنت ماأزال مجردا من بنظرونى وسروالى الداخلى .  
وجعلنى هذا أشعر أنى عار تماما أمام اللجنة ، ليس فقط بالمعنى المادى للكلمة ، وانما بمعناها المجازى أيضا ، وأننى تحت رحمتهم تماما .

لكن أغرب ما فى الامر ، أن الدقائق الاخيرة أمدتني باحساس مجهم بأنى أستطيع أن أوجه اليم ضربة ما ، أو أرد لهم ضربتهم بصورة ما .

تتحنق القصير الذى صرت أبادله الكراهية ، وبعد أن التفت للعجوز مستأذنا ، وجه الى الحديث بلهجة متكلفة :

« ان اجابتك المستقيضة تكشف عن سعة اطلاعك فى الشؤون المعاصرة . ونحن نتمنى أن تكون على نفس القدر من السعة ( وهنا لم أملك نفسى من الابتسام ) بالنسبة للقضايا التاريخية » .

التمعت العينان الملونتان لذى الشعر الأشقر وقال لزميله القصير :

« اذا سمحت لى » .

ثم اتجه الى قائلا :

« سنختبر هذه النقطة حالا . وبالنظر للأهمية التى أعطيتها فى حديثك للشكل الهرمى ، فليكن الهرم الاكبر موضوعنا . فلا يساورنى الشك فى أنك تتمنى الجلوس فوق قمته . على أن لك مطلق الحرية فى اختيار الزاوية التى تريد الحديث عنها » .

للوهلة الأولى فرحت ، فها هو موضوع أعرفه جيدا بحكم  
مصريتي ، وأستطيع أن أصول وأجول فيه كما أشاء • لكن قلبي  
سرعان ما حدثني بأن هناك شركا كبيرا قى انتظاري ، وتضرعت  
الى الله أن يلهمنى كي أتجنبه ، وأزيل أيضا الأثر السيء الذى  
أحدثته كلمتى السابقة • ولم يلبث الله أن استجاب لدعائى ، فأنا  
بصيرتى ، وانطلقت أتكلم بثقة وطمأنينة :

« ان المجموعة المعمارية المؤلفة من الاهرامات الثلاثة وأبى  
الهل ، والتي شيدت قبل خمسة آلاف سنة ، مازالت تمثل لغزا من  
الألغاز التى تتحدى العقل الانسانى ، وتشهد بعنقرية من شيدوها •

« وكلنا ولا شك تابعنا المحاولة الاخيرة التى قام بها العلماء  
الامريكان لكشف هذا اللغز ، بالاجهزة الالكترونية المتقدمة ، ولم  
تسفر عن شيء •

« فلا زال العلماء مختلفين فى الغرض من اقامة الاهرامات  
وكيفية بنائها • فمنهم من يرى أنها شيدت لتكون مرصد لتسجيل  
ما حدث والتنبؤ بما سيحدث • ويقول دافيدسون أن النسطوح  
الخارجية للهرم الاكبر صممت بحيث تعكس الضوء ، وبذلك يكون  
الهرم بمثابة مزولة شمسية تعين مواعيد البذار والحصاد •

« وهناك بالطبع الاحتمال الأغلب ، وهو تخليد أسماء الملوك  
والمحافظة على جثثهم • فلا شك أن الغرض الواضح من بناء  
الأهرامات هو أن تكون بمثابة مقابر خالدة • وان كان خوفو قد  
نجح فى تخليد اسمه اكثر من أى ملك آخر فى التاريخ ، فان الغرض  
الاساسى من بناء الهرم ، وهو المحافظة على جثته ، لم يتحقق ،  
لأنها اختفت رغم الشبكة الداخلية المتقنة من الممرات والغرف التى  
أخفيت عمدا أثناء البناء •

« ونحن نعرف من هيرودوت أن الاحجار المستخدمة في بناء الهرم الاكبر كانت تنقل بواسطة نهر النيل ، عبر طريق بناه مائة الف عامل في عشر سنوات ، وبعد ذلك ترفع من درجة الى أخرى في البناء بواسطة روافع مصنوعة من قضبان قصيرة .

« وليس هناك من دليل على أن المصريين استخدموا ، في أى عصر من عصور تاريخهم ، أجهزة ميكانيكية عدا الرافعة والبكرة والمنحدر المائل . ولهذا يميل الكثيرون الى الاعتقاد بأن ضخامة البناء ودقته تقطعان بأن وسائل ميكانيكية سرية ، ضاع سرها ، قد استخدمت في اتمامه . وربما كان هذا مبعث الخلاف الناجم بشأن دور الاسرائيليين في بنائه . فالبعض يقول أن خوفو نفسه كان من ملوك بنى اسرائيل في حقيقة الامر ، وقد أخفى ذلك طبقا لتقاليد هذا الشعب ، الذي أجبره الاضطهاد المتواصل منذ فجر التاريخ على أن يتسلح بالسرية التامة في كل أموره . والبعض الآخر يقول أن خوفو لم يكن سوى فرعون مصرى ، لكنه استعان بالعبقرية اليهودية لحل المشاكل المعقدة التي طرحها بناء هذه الاعجوبة المعمارية .

« والواقع ان الخواص الهندسية للهرم الاكبر تدل على ذراية وافرة بعلم الهندسة ، وقدرة فائقة على الابتكار والابداع . وهما أمران لم يتوفرا بالطبع لدى المصريين ، ولهذا فمن الأرجح أن يكونوا قد استعانوا بالخبرة الأجنبية الاسرائيلية . وان كان هناك من يؤكد أن الاسرائيليين كانوا عبيدا لخوفو ، وان هذا الملك المستبد أرغمهم على العمل في بناء الأهرام . وهذه النقطة بالذات محل مناقشة ، فاذا كان من الصعب انكار الطابع الاستبدادى لفراغنة مصر على مر الزمن ، فمن العسير أن نتصور أن يفاء بهذه العظمة والدقة يمكن أن يكون وليد السخرة وحدها ، والأقرب الى التصديق أن يكون وليد ايمان عميق بديانة تضع الفرعون على قمة الوجود .

« وهذا ما يؤدي بنا الى تفضيل النظرية القائلة بأن خوفو نفسه كان من الملوك السريين لبني اسرائيل ، خاصة وأنا نعرف المهندس الذي أشرف على بناء الهرم ويدعى حم - ايونو ، وهو ابن عم خوفو نفسه . »

« وفي كافة الحالات ، فان هذا البناء الهائل الذي يتكون من مليونين وثلاثمائة الف قطعة من الحجر ، شاهد على عبقرية من بنوه . فهناك ما يدل على أن مناشير نحاسية يبلغ طول الواحد منها تسعة أقدام ، قد استخدمت في قطع الكتل الحجرية الكبيرة ، التي اذا قطعت اليوم الى أجزاء صغيرة بطول قدم لكل منها ، ووضعت بجانب بعضها ، لأمكنها أن تغطي ثلثي المسافة حول الأرض عند خط الاستواء . »

« والمؤكد ايضا أن المثاقب الانبوبية الشكل قد استخدمت في تفريغ الكتل الحجرية . والحق أن الثقوب الحديثة لا تدانى في الدقة والكمال تلك التي صنعها أولئك البناة العظام منذ خمسة آلاف عام . وهي وحدها معجزة حقيقية . »

شعرت أن التوتر الذي كان يسود الحجرة قد تلاشى ، وأن الجو المعادي لي قد خف كثيرا . وكان أعضاء اللجنة قد استمعوا لي في اهتمام شديد ، حتى أن الرجل البدين الذي يجلس في الطرف ، أنزل عينيه لأول مرة من السقف وصوبهما الي . وعندما انتهيت رمقني أحد العسكريين بنظرة رضاء أسعدتني . ودبت الحركة في الاعضاء ، فانهمكوا في أحاديث هامة . وعندئذ لاحظت أن الجزء الاسفل من جسدي مازال عاريا ، فتناولت سروالي الداخلي في تردد . وعندما لم يستوقفني أحد ارتديته على عجل ثم أشفعتة ببنطلوني .

وبدا أنهم استقروا أخيراً على رأى تولى الرجل ذو الشعر  
الاشقر ابلاغه للرئيس عبر اذنه السليمة ، فقال لى هذا وهو يشير  
الى الاوراق التى وضعتها أمامهم فوق المائدة :

« يمكنك أن تأخذ هذه الأشياء الآن . لم تعد لدينا اسئله .  
وعندما نتوصل الى قرار بشأنك سنحيطك به علما » .

جمعت أوراقى وأنا أحاول أن أبدا واثقا من الحكم الذى  
سيصدرونه ، لكنى كنت أحس باضطراب شديد فى امعائى . وكنت  
أقوم بحركاتى دون وعى . فوضعت الأوراق فى الحقيبة بغير  
نظام ، ثم أغلقتها وتناولتها فى يدي اليسرى ( إذ تذكرت ماوقع  
لى فى بداية المقابلة ) . وانحنيت امام أعضاء اللجنة دون أن  
أنبس بكلمة ، ثم اتجهت الى الباب فأدرت مقبضه بيدي اليمنى .  
وسررت لأنه استجاب ليدي فى يسر وانفتح . فغادرت القاعة ولم  
أنسى أن أغلق الباب من خلفى . ووضعت الحقيبة على الأرض  
ثم أشعلت سيجارة فى لهفة .

وكننت أعرف أنى لن أذوق طعم النوم ، أو راحة البال ،  
حتى تصدر اللجنة قرارها النهائى بشأنى .









انقضت عدة شهور على المقابلة التي جرت لي مع اللجنة ،  
تناوبتني خلالها مشاعر اليأس والرجاء . فكنت أستيقظ في الصباح  
بثقة مطلقة في أن قرارها سيكون لصالحى . ولا تمض ساعات  
الا ويكون الشك قد راودبنى ، فاسترجع وقائع المقابلة لحظة  
بلحظة ، وعندئذ يستولى على هبوط بالغ ، أو أقع فريسة اليأس  
مطبق .

لم تكن هناك وسيلة لتلمس موقف اللجنة منى ، أو الاتجاه  
الذى تمضى فيه مداولاتها بشأنى . حقا انه قد خطر لى أن أسعى  
للقاء العانس ، عضو اللجنة ، لكنى تصورت أنها ليست من البله  
بحيث تفضى الى على الفور بما أريد . ولا بد أن أبذل جهدا خاصا ،  
لأبلغ هذه الغاية . على أنى كلما تذكرت وجهها الشاحب ، تلاشت  
رغبتى فى لقائها . فرغم أنى تورطت فى بضع أشياء تتناقض ،  
بدرجة أو أخرى ، مع مبادئى ، منها على الاقل قبولى للمهانة التى  
تعرضت لها على « يد » اللجنة ، الا أنى لم أهبط بعد الى الدرك  
الذى أتودد فيه الى امرأة توددا مصطنعا . وليس الأمر قرارا عقليا  
بقدر ما هو استعداد نفسى فى الاساس . وحتى لو استطعت ، فماذا  
يضمن لى الا اضطر للمضى حتى النهاية . ومعنى هذا أن يتطور

الموقف الى كارثة ، بالنظر الى سوابقى فى هذا الشأن ، والتي كانت موضوعا للعبث بى امام اللجنة .

لم يبق امامى غير الانتظار ، فلزمت البيت ، لا أغادره الا لما ، كى لا تفوتنى اشارة من اللجنة تبلغنى فيه بقرارها ، ان سلبا او ايجابا ، او تستدعينى امامها لهذا الغرض .

وكنت اهم بتناول عشائى ذات مساء ، عندما وصلتنى منها برقية اثار حيرتى . فبدلا من دعوة للحضور ، او بلاغ وجيز بالقرار النهائى ، طالعتنى هذه وكلمات :

« ننتظر دراسة عن المع شخصية عربية معاصرة » .

كانت المعلومات القليلة التى تجمعت لدى عن اجراءات اللجنة ، تؤكد انى امام اجراء غريب ليس له سابقة . فقد جرت عادة اللجنة على ان تبت فى امر من يسوقه حظه للممثل امامها ، من خلال لقاء وحيد لا يتكرر .

ولم يكن من سبيل لتعليل هذا التحول الغريب فى تقاليدنا ، الا بافتراض حدوث انقسام فى الراى بشأنى بين اعضائها . ومعنى هذا ان قوة مركزى هى الدافع لهذا القرار ، الذى ارادت به اللجنة ولا شك ارضاء المعترضين على ( وبينهم بالتاكيد ذلك القصير قبيح الوجه ) واعطائى فرصة جديدة لتبيان مواهبى .

رفع هذا التأويل من معنوياتى الى ان تبينت الوجه الآخر من الامر . فماذا يمنع ان يكون ضعف مركزى ، على العكس ، هو الذى جعل اللجنة تحاول ارضاء من تصدى للوقوف بجانبى ، بمنحى فرصة ثانية ؟ ومعنى هذا ، فى الغالب ، ان المهمة المطروحة

ليست لها قيمة كبيرة ، وانما هي ذريعة لتأجيل القرار الذي تحدد  
جوهره بالفعل . .

وقبل ان اهوى الى قرار اليأس ، تراءى لى احتمال ثالث ،  
هو أن تكون اللجنة قد أدخلت بعض التطوير على اجراءاتها ، ومن  
الطبيعى أنى لم أسمع بالنبأ ، منذ كانت الصحف لا تخوض فى  
شؤونها من قريب أو بعيد .

ساعد على ميلى للأخذ بهذا التفسير أن الدراسة المطلوبة  
ستكشف عن مدى تمكنى من لغة اللجنة ، حيث أنها مستقدم اليها  
مكتوبة كما يفهم من ثنايا البرقية . ولم تكن تهتم فى السابق بهذا  
الجانب من قدرات الماثلين أمامها .

اتجه اهتمامى بعد ذلك الى دراسة البرقية بحثا عن الفخاخ  
التي اشتهرت اللجنة بها ، فوجدتها حافلة بالعديد منها : فهي  
أولا لم تحدد زمنا لهذه الدراسة ولا حجما لها . فلا أعرف اذا كان  
المطلوب هو عجالة سريعة مثل ما ينشر بالصحف ، او بحثا  
أكاديميا فى مئات الصفحات . كما أنها لم تحدد المقصود باللمعان .  
أهو الشهرة ؟ أم تحقيق انجازات معينة ؟ وأى نوع من الانجازات؟  
وعلى أى مستوى : فردى أم عام ؟ وفى أى مجال ؟

لم يكن من الممكن الاستفسار من اللجنة عن هذه الامور ،  
لأن هذا من شأنه ، اذا فرضنا أنه تيسر ، أن يظهرنى بمظهر  
العاجز ، ويقضى على كل فرسى ، منذ كانت اللجنة تعول كثيرا  
على طريقة تفسير أسئلتها . لهذا لم يكن امامى سوى الاعتماد  
على نفسى .

لجأت الى معاجم اللغة ، فوجدت أن للمعان في لغة اللجنة معنى واحدا يقتصر على خاصية عكس الضوء . أما العرب فقد أضفوا على الكلمة معاني متعددة ، فاستخدموها بمعنى البرق والاضاءة ، وبمعنى السرقة عندما قالوا لمع بالشئ أى ذهب به واختلسه . كما قالوا ان الأنثى ألعت أى ظهر حملها وتحرك الجنين فى بطنها . وقالوا أيضا أن الألع هو الذكى المتوقد ؛ أما ألمع الناس فهو أكثرهم كذبا . ويبدو أن المعنى الأخير هو الذى اشتق منه التعبير الشعبى المعاصر « ابو لعة الاصلى » الذى عرف فى البداية كاسم تجارى لأجود أنواع الطلاءات المستخدمة فى تلميع الأحذية ، ثم أصبح مع الوقت علما على كل من الكذب والمبالغة والادعاء .

ولكم أن تتخيلوا حيرتى . فأى هذه المعانى التى تعرفها اللجنة هو المقصود؟ وعم أبحث بين مئات الشخصيات التى تحدث ضجيجا لا ينتهى فى كل بلد عربى على حدة ، وعلى نطاق العالم العربى ككل ؟

قلبت الامر فى رأسى مدة دون أن أصل الى رأى . وأخيرا قررت أن أستعرض الاسماء المعروفة فى المنطقة ، من مختلف المجالات ، دون أن أتقيد بمقياس معين لهذه المعرفة ، ومن خلال استبعاد الواحد منها بعد الآخر ، أحصر البحث فى عدد محدود من الأسماء والمعابير ، ثم أتخذ قرارا بشأن المعيار النهائى فى اختيار أحدها .

بدأت بالزعماء السياسيين والحكام ، فليس هناك من هم أكثر احداثا للضجيج منهم ، ولا أقوى . لكنى لم ألبث أن تبينت المشاكل التى ستترتب على اختيار احدهم . فالمعروف أن الجدل يثور كثيرا حولهم ، ومن شأن دراسة كالتى أنا مقدم عليها ، أن تتعرض لتقويم الشخصية المختارة . وفى هذه الحالة تكون ثمة فرصة قد لا تتوفر فى حالات أخرى ، لأن أتخذ وجهة نظر تتعارض مع تلك التى تتبناها اللجنة .

استقر رأيي على استبعاد السياسة والحكام ، وأتبعتهم  
بالقيادة العسكريين عندما لم تسعفتي ذاكرتي باسم واحد منهم .  
ثم إسقطت الشعراء من حسابي لأنى لا أستسيغ ، ربما عن خطأ ،  
كلماتهم الفضفاضة ومعانيهم المبهمة ، وبذلك فأنا من البداية  
متحيز ضدهم ، وهو أمر يخل بالموضوعية الكاملة التى لا بد أن  
تتوفر فى دراسة كالتى أنا بصددها .

دونت أسماء عدد من الكتاب البارزين ، وعندما أخذت فى  
تحليل وضع كل منهم وجدت أن ما نالوه من مكانة يعود الى الأفكار  
والمبادئ التى دعوا اليها فى وقت ما . وبمزيد من التحليل ،  
تبينت أنهم أصبحوا فريقين ، الأول التزم الصمت ، سواء عن رهبة  
أو قنوط ، رغم أنه يعرف أكثر من غيره حقيقة ما يجرى ، والفريق  
الآخر تراجع بسهولة ويسر عن دعاويه السابقة ، بل وتنكر لها .

وبحثت عبثاً عن قاض واحد ارتبط اسمه بوقفة مجيدة الى  
جانب الحق . ومن هذه الزاوية أيضاً أمكننى أن أتخلص من  
الصحفيين وزعماء العمال ، وسرعان ما ألحقت بهم من يدعون  
بنواب الشعب .

واكتشفت أن أغلب العلماء والاطباء والفنانين والمهندسين  
والمدرسين وأساتذة الجامعات كانوا مشغولين بجمع الثروات عن  
القيام بعمل واحد من شأنه أن يضعهم فى دائرة الضوء ، أو بالقرب  
منها . حقا إن صيت بعض من هاجر منهم طيق الآفاق بما حققه  
من كشف أو ابتكار فى مجاله ( رغم شكى أن الأمر فى كثير من  
الحالات لا يتعدى الدعاية المفتعلة ) . لكنه فعل ذلك فى الخارج ،  
بعد أن نشأ وتعلم بين ظهرانينا ، ووضعت ابتكاراته وكشوفه على  
الفور لخدمة البلاد الأجنبية وأهلها . قأى علاقة صارت تربطه  
بموطن نشأته ؟

توقفت طويلاً عند عدد من المغنين والمغنيات الذين يتمتعون بشعبية واسعة بين جميع العرب ، وتتابعهم الآذان بشغف من فوق قمم الجبال ، وفي متاهات الصحراء ، ومراكز المدن . لكن الكلمات المبتذلة والالحان الرخيصة التي يرددونها نفرتنى منهم . وكنت أميل الى صوت أحد كبارهم ، الذي استطاع بعبقرية من نوع خاص أن يبقى فوق القمة أكثر من نصف قرن ، طافيا فوق سطح الاحداث التي عصفت بهذه الأمة . لكنى كنت أعرف ، بحكم ظروفك عرضت لى ، المصدر الاصلى لأغلب الالحان التي نسبها لنفسه ، كما كنت أعرف أيضا أنه يقدم ما يشبه الرواتب الشهريه لعدد من الشخصيات الاعلامية التي تعمل على حراسة مجده ، وأنه يحارب بلا هوادة أية أصوات جديدة مناقسة .

وقضيت وقتا مماثلا ادرس موقف تلك الدمى التي تملأ فراغ الشاشتين الكبيرة والصغيرة على السواء ، فلم أجد لدى حماسا لتقصي أمر احداها . فبالرغم من دقة وضعى ، وحاجتى الشديدة لرضاء اللجنة ، فانى آليت على نفسى فى كل أمورى ، الا أقوم بعمل من الأعمال الا ويكون له صدق فى نفسى ، ويستجيب لشيء عميق او أصيل فى داخلى .

لم يتبق غير الراقصات اللاتي تظهر صورهن فى الصحف كل يوم ، ويأتى للاستمتاع بمشاهدتهن فى الملاهى المتناثرة تحت سفح الاهرامات العتيده ، آلاف المبعوثين المتعطشين الى المعرفة من مختلف اركان الوطن العربى .

وكان ثمة ما يجرى بالبحث والتقصي بشأنهن . وأقصد بذلك بعدهن عن الأمور الايديولوجية والسياسية ، مما يضمن منذ البداية عدم الاصطدام باللجنة .



اتجه ذهني على الفور الى واحدة متهن ، دأبت الصحف على نشر أخبارها . وكنت قد شاهدتها بعيني في مرة وحيدة قادتني فيها الصدف الى الملهى الذى ترقص به . وأعجبنى يومها جسدها الفارغ الطويل ، الذى تلاعبت بدلة الرقص اللامعة بتفاصيله الرائعة بين الكشف والاختفاء ، رغم ما اتسمت به حركاتها من مبالغة . ولاحظت أنها تجد صعوبة فى ايداع الهبات التى انهالت عليها ، بين نهديها المكتنزين . وكان من الواضح أن بدلة الرقص لاترك فى هذا الموضع مكانا كافيا للأوراق العريضة من الجنيهات العشر التى كانت الهبات تتألف منها . وهو أمر تنبتهت اليه الدولة أخيرا عندما أصدرت اوراقا من فئة المائة جنيه فى أحجام صغيرة ملائمة ، مما يقطع بمدى ما لصاحبتنا من ثقل .

فكرت طويلا فى الأمر ، وقد استمالتنى انى سأقضى ، بحكم الدراسة المقترحة ، بعض الوقت بالقرب منها ، قد تسمح لى خلاله بارتياح الاماكن المطروقة جيدا من قننا العظيم .

الا انى لم ألبث أن تخليت عن هذه الفكرة آسفا ، عندما تصورت المقاومة العنيفة التى ستواجهنسى من عضوات اللجنة ، والتى ستحظى دون شك ببعض المساندة ، ولو ظاهريا ، من بقية الاعضاء .

عندئذ انتابنى شعور بالغ بالاحباط والعجز . ورأيت انى مشرف على الافلاس والفشل . ولت نفسى على انى انسقت من البداية وراء سراب من الطمسوح ، قادتنى اليه ثقة بمواهبى ، فوضعت نفسى فى طريق اللجنة ، متعرضا بذلك لمن متتابعة .

كان هذا منحنى تفكيرى ذات صباح ، وأنا أمر ببصرى فى غير مبالاة على عناوين الصحف ، متوقفا عند بعضها لأقرا التفاصيل بشعور المرارة الذى يفيض بى عادة عندما أفعل .

لفتت نظرى صورة كبيرة بعرض الصفحة الاخيرة ، تمثل اعلانا عن بنك أميركى - عربى جديد ، ظهر بها جانب من حفل افتتاحه وعدد من كبار المؤسسين وجلهم من الشخصيات البارزة .

والذى اجتذب انتباهى على وجه التحديد هو البدلة اللامعة لأحد الذين ظهروا فى الصورة . ولم أتعرف عليه فى البداية بسبب التمويه الذى تتميز به هذه الصور عادة . الا أنى تمكنت من ذلك بعد أن قرأت أسماء الواقفين بالترتيب

كان لأسمه الكامل وقع غريب فى أذنى ، لأنه كان معروفا لى وللكثيرين بلقب « الدكتور » وحسب . ومع أن بلادنا تعج بالآلاف الذين يحملون هذا اللقب العلمى الرفيع ، فان مجرد ذكر اللقب وحده كان كافيا للدلالة عليه دون سواء .

ظل كل من اسمه ولقبه يتردد فى ذهنى طول اليوم ، ومعهم صورته بالبدلة اللامعة ، وبعض الذكريات القديمة ، ومنها المرة الوحيدة التى رأيت فيها رأى العين . وكان ذلك منذ خمس سنوات تقريبا ، عندما توقفت بى سيارة أجرة أمام إشارة المرور فى ميدان رمسيس ، ورأيت الانظار كلها تتجه الى سيارة مرسيديس فخمة من أحدث طراز ، استقر صاحبنا فى مؤخرتها ممسكا بسماعة تليفون . وكان ذلك أمرا عجبا حينئذ ، لأننا كنا ما يزال قريبي العهد بحرب أكتوبر ، ولم نكن قد انفتحنا بعد ، وبالإضافة الى ذلك كانت

أغلب التليفونات الثابتة في البلاد عاطلة عن العمل ، فما بالكم  
بواحد متحرك يعمل ؟

وبعد ذلك بعام أو نحوه ، حملتني الظروف الى بغداد ،  
وكنت أسير مع صديق عراقي في أحد الشوارع القريبة من وسط  
المدينة ، عندما رأيت على الرصيف المقابل منزلا مكونا من طابقين ،  
تحيط به حديقة صغيرة ويحرسه عدد من الجنود بالملابس المموهة  
والمدافع الرشاشة . سألت صديقي عن صاحب المنزل فاذا به ينهرني  
بصوت خافت وقد أطرق برأسه الى الأرض : « انظر أمامك  
ولا تتطلع الى الناحية الأخرى » . فعلت كما أراد ، وعندما ابتعدنا  
عن المنطقة قال لي : « أتريد أن تقضى علينا ؟ هذا منزل الدكتور ! »  
لم أجرؤ ساعتها على مزيد من الاستفسار ، فلم أعرف حتى الآن  
ما اذا كان المقصود بذلك هو مواطني المعروف ، أم شخص آخر ،  
عراقي ، ينازعه اللقب .

وإذ أعطيت الأمر الآن جانبا من تفكيري ، رأيت أنه يستوى  
في الحالتين . فلا يقلل من شأن مواطني أن يوجد مناقس له في كل  
عاصمة عربية ، وعلى العكس فان ذلك يعطى فكرة عن أوجه  
التشابه ، ان لم يكن التطابق ، بين الاثنين ، ويؤكد من جديد  
خطورة شأن صاحبي وأهميته .

ولعلكم لمستم اهتمامي بأمره . فمع تداعي الذكريات  
والانطباعات ، ازددت اقتناعا بأنني وجدت ضالتي أخيرا . قد  
لا يكون « الدكتور » معروفاً بالقدر الذي يتمتع به المغنون  
والراقصات ، إلا أنه بالتأكيد أكثر منهم فاعلية وتأثيرا ، لا في  
حدود بلادي وحدها ، وإنما على مستوى العالم العربي بأكمله .  
ولا شك في أنه يساهم بقدر كبير في صياغة الحاضر والمستقبل ،  
فهل يكون ثمة من هو « المم » من ذلك ؟

هكذا حزمت أمرى على أن أجعله موضوعا للدراسة المطلوبة

منى •

وضعت خطة بارعة تتلخص فى قراءة كل ماكتب عنه من دراسات أو مقالات أو أنباء عابرة بالصحف ، ثم مقابلته وتوجيه عدد من الاسئلة الذكية اليه ، أعددتها بعناية ، بحيث تسد الفجوات التى ستقابلنى فى قراءتى واستكمل بها معالم شخصيته ، التى أنوى رسمها بدقة واحكام •

على أنى اضطررت الى تعديل خطتى عندما لم أجد كتابا واحدا عنه • ويبدو أن أحدا غيرى لم ينتبه الى أهميته ، ولم يجد فيه موضوعا جذابا ، او ربما كان الكتاب ينتظرون موته ، لتكتمل بذلك سيرته •

ويقدر ما سعدت لأنى أطرق موضوعا بكرا لم يسبقنى اليه أحد ، شعرت بالصعوبات الناشئة عن ذلك • لهذا قررت أن أبدأ بمقابلته ، فقد يدلنى على شىء كتب عنه وفاتنى العثور عليه ، او قد تكون لديه بعض المذكرات الشخصية التى لا يمانع فى اطلاعى عليها •

ارتديت أفضل ملابسى ، وحملت حقيبتى « السامسونائيت » بعد أن أودعت بها مسجلة يابانية صغيرة الحجم وكراسا جديدا وعدة أقلام وورقة صغيرة دونت بها رؤوس الموضوعات التى أبغى طرقها معه •

انطلقت الى مقر احدى المؤسسات التى ارتبطت باسمه بعد أن حصلت على عنوانها من دفتر التليفون • ونكسر لى موظف الاستعلامات أن « الدكتور » لا يتردد على مؤسسته فى مواعيد محددة • وعندما أوضحت له حاجتى الشديدة للقائه ، دون أن أنكر له بالطبع السبب الحقيقى ، أحالنى الى احدى السكرتيرات بعد أن فتش حقيبتى للاطمئنان على خلوها من الاسلحة والمتفجرات •

عاملتني السكرتيرة بجفاء مؤكدة استحالة الفوز بمقابلة «الدكتور» في موعد قريب ، فهو أولا لا يتواجد في مكتبه الا نادرا لأنه دائم التنقل بين العواصم العربية بحكم أشغاله ، وهناك ثانيا قائمة طويلة من المنتظرين ، ولا بد لي ثالثا من ايضاح مطلبى باستفاضة على ورقة مكتوبة بلغة سليمة تقدم اليها لتحيلها بعد ذلك الى مدير مكتبه . وعرفت منها أن مدير المكتب هو نفسه أحد اساتذة الجامعات المعروفين الذين لمعوا في الستينات وارتبطت اسمائهم بمشروعات طموحة للتصنيع الثقيل .

وقعت في حيرة شديدة . قلم يكن في وسعي أن أنكر حقيقة علاقتي باللجنة . فبالرغم من خطورتها وسعة نفوذها ، فانها من الناحية الرسمية لا وجود لها ، وأي محاولة للتمسح بها لن تقابل الا بالاستغراب والسخرية . واذا كان من الممكن أن يدور الحديث حول هذا الموضوع بيني وبين الدكتور نفسه ، فمن المستحيل أن أشير اليه في ورقة تأخذها السكرتيرة لتضعها أمام مدير المكتب . أما اذا أغفلت دور اللجنة ، فماذا يتبقى ؟ أحد هواة الكتابة الجهولين يبغى وضع كتاب عن شخصكم الكريم . وما الذي يضمن له أنني لست سوى محتال يسعى للقائه طلبا لوظيفة او صدقة ؟

انصرفت مهموما لأدرس الأمر . ورأيت أن الوقت يمضي بسرعة دون أن أتوصل لشيء ، وأن محاولة الالتقياء بالدكتور ستسغرق عدة أيام وربما أسابيع ، وفي النهاية قد لا تسفر عن شيء . لذلك غيرت خطتي مرة ثانية ، وعزمت على التفرغ قورا لجمع كل ما نشر عنه بالصحف .

مضيت الى المبنى الضخم الذي يضم مكاتب أهم الصحف اليومية وأكثرها توزيعا ، وطلبت الاطلاع على أعدادها الصادرة منذ ربع قرن ، فهذا هو التاريخ الذي رأيت أنه يصلح نقطة بدء لتتبع مسيرة الدكتور الحافلة .

اتخذت مكاني الى احدى الموائد في قاعة المكتبة ، وأخرجت من حقيبتي الكراسى الفارغ والقلم ، بينما احضر لي الموظف عدة مجلدات من الصحيفة يكسوها الغيار ، فتناولت المجلد الأول ، وفتحت غلافه ، ثم بدأت أقلب الصفحات .

غصت على الفور في عالم غريب من الاحداث المثيرة والرجال والنساء الذين ملأوا الأسماع والاصدااء . وانبسطة أمامي الطموخات التي تأججت يوما في الصدور . استغرقتني صور الماضي ، حتى انى كنت أنتزع غيبي بصعوبة من الصفحات المغيرة مذكرا نفسي بالهدف الذي أسعى وراءه ، فانتقل الى الصفحات التالية في ثقيل وكآبة ، وأصبحت كمن يستعيد طفولته وصدور شبابه ، ويتأمل ما داعبه ذات يوم من أحلام وآمال ، ولا يلبث أن يشعر بالاسى عندما يتبين ما صار اليه حاله .

اعتورنى دوار من جراء تقليب الصفحات ونقل البصر بين العناوين والصور واستنشاق الغيار . وبدأت أشعر بهول المهمة التي وضعتها لنفسي عندما لم أتمكن بعد ثلاث ساعات من استعراض أكثر من عشرة أعزاز . عندئذ أصابني هبوط مألوف ، وشعرت بحاجة ماسة الى فنجان من القهوة أو كوب من البيرة ، لكنى لم أجد المهمة الكافية لأن اطلب شيئا من صبي المقصف الذي كان يطل برأسه من مدخل القاعة كل حين .

وحسم موظف المكتبة الأمر عندما أبلغنى بانتهاء خوعد العمل فتنهدت في ارتياح ، وأعدت اوراقى الى الحقيبة ، بيضاء من كل سوء ، وحملت الحقيبة وغادرت القاعة .

قمت بعملية حسابية بسيطة فرأيت أن الأعداد التي أريد الإطلاع عليها من هذه الصحيفة بالذات هي  $25 \times 365$  سنة = 9125 عدداً . وطبقاً لمعدل اليوم ويفرض أنني عملت كل يوم دون انقطاع ودون أن أمرض أو تؤخرني المواصلات أو يعوقني انقطاع الكهرباء أو المياه أو غير ذلك من الطوارئ المألوفة ، أكون بحاجة إلى حوالي الألف يوم أي ثلاث سنوات . هذا بالنسبة لصحيفة واحدة .

ولم يكن بوسعني أن أعتد على صحيفة واحدة فحسب . فرغم أن صحفنا القومية تنشر دوماً نفس الأخبار والتعليقات بل ونفس الصور ، إلا أن أركان الأخبار الخفيفة وأنباء النوادي والسهرات تتميز بشيء من التنوع . وهي التي عولت عليها ، فليس ثمة مكان لأنباء « الدكتور » على الصفحات الأولى ، طالما أنه ليس بالشخصية السياسية أو السينمائية .

يضاف إلى ذلك المجلات الأسبوعية والشهرية ، والصحف والمجلات الصادرة في المشرق والمغرب . ومعنى هذا كله أنني إذا أردت أن أكون أميناً مع نفسي ، فلا بد لي من التفيرغ ، تفرغاً كاملاً ، لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات أو أربع ، من أجل جمع مادة البحث فقط . وهناك بعد ذلك الوقت اللازم لدراستها وتحليلها ثم صياغة النتائج التي سأتوصل إليها .

لم أكن قلقاً بشأن انقطاعي عن عملي الأصلي ، إذ أن اللجنة توفر لمن يتقدم أمامها إجازة مدفوعة الأجر من عمله إلى أن تنتهي من أمره . لكنني كنت أجهل المدة المقررة للبحث ، وبالتالي لم يكن بوسعني التورط في منهج للعمل يتطلب وقتاً بهذا الطول .

بحث بلا جدوى عن مخرج الى أن تذكرت أن احدى الصحف اليومية الكبرى تحتفظ بارشيف ضخمة يضم معلومات تفصيلية عن أهم الشخصيات العربية ، يعتبر من مفاخر مؤسسيها . وكان الهمس قد تردد في وقت من الأوقات ، أن اللجنة حصلت منهم على صورة من هذا الأرشيف ، وأنها تعتمد عليه في عملها الى درجة كبيرة . وقدريت أن ما يضمه هذا الأرشيف من معلومات عن « الدكتور » سيكون ذو عون كبير لى .

على أن الاطلاع على هذا الأرشيف لم يكن متاحا لكل من هب ودب من الناس . وتطلب الأمر بحثا شاقا حتى اهتديت الى من أوصنى بى الموظف المسؤول عنه ، وسرعان ما كان الملف الموعود فى متناول يدى .

لم يكن بالضخامة التى توقعتها . وكان يحمل فوق غلافه شعار الدار ، واسم الدكتور الكامل مكتوبا بخط مزخرف فى عناية .

فتحت الملف بإصابع مرتعشة من الأنفعال فطالعتنى ورقة بيضاء فى أعلاها تاريخ يعود الى بداية الخمسينات ، ولا شيء عدا ذلك . وقلبت الورقة قرأت الورقة التالية مثلها .

تصفحت أوراق الملف بسرعة فرأيتها كلها متشابهة فى ظلها من كل شيء عدا التاريخ . وما لبثت أن تبينت فى صدر كل ورقة أثر الصمغ الذى كان يلصق بها المقتطفات المنتزعة من الصحف والمجلات .

أبدى المسؤول دهشته عندما عرضت عليه الملف ، لكنه لم يكن يملك شيئا لى . وأوشكت أن أنصرف عندما خطر لى أن أسجل التواريخ المذكورة على رأس كل ورقة ، ثم أرجع الى الصحف والمجلات التى صدرت فيها ، وبذلك أتوصل بمجهود بسيط الى محتويات الملف .



هكذا فعلت ثم انتقلت على الفور الى قاعة مجاورة ، حيث شرحت للموظف المشكلة ، فأحضر لى المجلدات التى تتفق وأولى التواريخ لدى . واذأ بى أفاجا بخلوها من أى شىء عن الدكتور . وعندما دقت البحث اكتشفت ان بالاعداد المقصودة فقرأت قصيرة منزوعة بعناية بواسطة موسى . ولاحظت أن بعضها فى الصفحات المخصصة لأنباء الجرائم وأخبار السينما والتلفزيون .

انتابنى الشك فى أمر الفقرات المقتطعة ، فقررت أن أوصل البحث لاقطع الشك باليقين . وعندما عدت فى اليوم التالى لهذا الغرض ، فوجئت بصدور تعليمات تحظر استخدام المكتبة على غير العاملين بالصحيفة .

وتكرر الأمر معى بحذافيره فى دور الصحف الأخرى ، بدءا من الموسيقى الخفى ، الى الأوامر التى تحول بينى والتردد على مكنتها .

لجأت الى دار الكتب ، فقدمت الى المختصين قائمة بالاعداد التى أريد الاطلاع عليها من الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية . وبعد عدة ساعات من الانتظار ، أبلغت بأن الاعداد التى طلبتها غير متوفرة فى الوقت الحالى بسبب وجودها فى قسم التجليد .

لم يعد لدى شك فى الأمر ، فأعلمت فكرى الى أن توصلت الى حيلة مأكرة . فقد مضيت الى مكاتب احدى المجلات النسائية الاسبوعية ، وطلبت الاطلاع على الاعداد الصادرة بعد اسبوع أو اسبوعين من كل تاريخ لدى . وعندما سألنى الموظف عن بغيتى، احتطت للأمر فقلت أنى اعد بحثا عن أشهر الجرائم فى التاريخ العربى المعاصر . فقد كان من عادة هذه المجلة أن تغطى أهم أحداث الاسبوع ، كما أنها أفردت ركنا خاصا ، فى كل عدد ، لأخبار الجرائم ، وآخر لأخبار الفن .

عكفت على العمل بحماس أوقدته ، فى الغالب ، الظواهر الغامضة التى صادفتنى • وحالفنى الحظ فعثرت فى أحد الأعداد الصادرة حوالى أول تاريخ لى ، على صورة للدكتور فى شبابه ، بصفته وجهاً جديداً فى ميدان الإنتاج السينمائى ، وذلك بمناسبة نجاح فيلم كوميدى شارك فى إنتاجه •

وبعد عدة أشهر من التاريخ الثانى لى ، عثرت على مقال يسرد وقائع جريمة غربية ، اعتدى فيها أحد الشبان على « شخصية فنية معروفة » وصفتها المجلة بأنها « ذات تاريخ وطنى حافل » •

فهمت من ثنايا المقال أن هذه « الشخصية » كانت على علاقة باخت المعتدى • وذات يوم وجدت الفتاة ميتة فى ظروف غامضة ، فاتهمه أخوها بأنه السبب فى وفاتها • ولم يعبأ أحد بهذا الاتهام ، فما كان من الأخ الا أن أطلق عليه الرصاص ، فأحدث به إصابة طفيفة •

وأغرب ما فى الأمر أن المبنى عليه اتهم الجانى فى التحقيق بأنه عضو فى منظمة يسارية ، ثم تصالح معه وألحقه بوظيفة فى الشركة التى يديرها •

حدثنى قلبى بالاسم الحقيقى لهذه الشخصية الفنية • وتأكدت حدى عندما عرضت المجلة لتاريخ صاحبها وذكرت أنه كان ، قبل الثورة ، عضواً فى إحدى الجمعيات الوطنية المتطرفة التى قامت بدور بارز فى الكفاح ضد الاستعمار الانجليزى ( فهى إحدى الحقائق المعروفة عن حياة الدكتور ) وأنه ترك دراسته عام ١٩٤٧ وسارح الى فلسطين على رأس كتبية من زملائه المتحمسين حيث

اشترك في الحرب ضد العصابات الصهيونية التي كانت تقاتل باستماتة لإنشاء دولة إسرائيل . وفي أعقاب الثورة استكمل دراسته واتجه الى ميدان الانتاج السينمائي .

سعدت بهذا الاكتشاف ، وواصلت العمل بنفس الأسلوب فأمكنني أن أجمع بعض المعلومات القيمة ، وان استغرق مني ذلك وقتا ليس بالقصير .

فقد عرفت أنه شارك في تكوين شركة لانتاج المياه الغازية عشية العدوان الانجليزي - الفرنسي - الاسرائيلي على مصر ، وأنه كان أحد الذين تقدموا لشراء الشركات الاجنبية بعد تمصيرها في أعقاب ذلك العدوان .

وعثرت على نص كلمة ألقاها في مؤتمر اقتصادي عقد بدمشق غداة الوحدة المصرية - السورية ، وصف فيها الوحدة العربية بأنها الرسالة الخالدة لكل عربي في هذا القرن ، وهماجم الشيوعيين متهما اياهم بالخيانة لأنهم سبق أن وافقوا على التقسيم الصادر عام ١٩٤٨ والذي كان يسمح بقيام دولتين في فلسطين ، واحدة للعرب وأخرى لليهود .

ووجدت بعض الانباء المتفرقة قليلة الأهمية عنه في تلك الفتوة . ثم خدمني الحظ ، الذي لا يعطى هباته الا لمن يعمل بدأب ، فعثرت بالصدفة على خبر صغير في باب الاخبار الاجتماعية يشير الى محاضرة ألقاها في أحد الاندية النسائية بالجزائر عن « المفهوم العربي للاشتراكية » . وفي هذا الخبر وجدت اسمه ، لأول مرة ، مسبقا بلقب « الدكتور » . وبعد ذلك بشهور وقعت على اعلان كبير في صفحة كاملة يتضمن تهنئة من إحدى شركات المقاولات التابعة للقطاع العام لرئيس الدولة على ما حققه من انتصارات . وأسفل الاعلان ، قرأت اسم الدكتور بصفته رئيسا للشركة .

انقطعت أخباره بعد ذلك فترة طويلة الى أن عثرت باحد  
الاعداد الصادرة في صيف عام ١٩٦٧ ، على اشارة الى سلسلة  
من المقالات نشرتها له احدى الصحف اليومية ، يحلل فيها أسباب  
الهزيمة ، فاسبى الى الاتحاد السوفيتى المسؤولية الاساسية عنها .

ويبدو أنه تزوج فى هذه الفترة ، للمرة الثالثة ، من ابنة أحد  
ملوك البترول العرب ، المعروفة بنزواتها وشطحاتها الغريبة ، إذ  
أن أنباءها سرعان ما طغت على أنبائه هو ، وهو أمر طبيعى بحكم  
تخصص المجلة . ولم أجد فى اعداد السنوات التالية سوى  
اشارات مقتضبة الى اعماله الواسعة ، والمشروعات الضخمة  
التي يتعهد بها بمختلف أرجاء المنطقة ، وخاصة بعد حرب اكتوبر ،  
ويقوم فيها بدور همزة الوصل بين الممولين الاجانب ، والمستهلكين  
المحليين .

شعرت أن المجلة النسائية قد أدت دورها بالكامل ، وأن الوقت  
قد حان للبحث فى اتجاه آخر ، فشكرت مدير المكتبة على ما قدمه  
لى من مساعدة ، وعرفنى الرجل بنفسه .

استولت على الدهشة لأنه كان اسما معروفا بين كتاب  
الصحف فى أحد الأيام فغمغمت :

« لكن كيف ؟ »

رد على سؤالى المبتسر قائلاً :

« اسأل من كنت تفتش عن أخباره » .

انزعجت للغاية وسارعت أقول : « من تقصد ؟ »

ابتسم وقال : « لا تخف . . . فلن أنكر شيئاً لأحد على الإطلاق » .

قلت : « لست خائفاً . فهناك جهات ذات نفوذ - لست في حل من نكرها - قد عمى » .

اتسعت ابتسامته وقال : « لن ألومك إذا خفت » .

سألته : « كيف عرفت . . ؟ »

أجاب : « منك . فعندما تجلس مكاني هذا عدة سنوات ، يمكنك من النظرة الأولى أن تفهم هوية الأشخاص الذين يترددون على المكتبة لينقبوا بين صفحات الأعداد القديمة . وعندما لاحظت أنك تختلف عنهم ، ثار فضولي ، ولم يكن من الصعب أن أتتبع الصفحات التي تتوقف عندها ، وأن استنتج اهتمامك به » .

عدت أسأله : « وما الذي جعله مسؤولاً عن انزوائك في هذا المكان ؟ »

قال : « مقال نشرته » .

تطلعت إليه متسائلاً فأضاف : « يمكنك أن ترجع إليه بسهولة » .

رويت له ما حسادفنى من صعوبات في البحث عن أخبار « الدكتور » بالصحف اليومية ، فقاطعني قائلاً :

« ستجد مقالى بالتأكيد لأن الصحيفة التي نشرته لا يهتم بها أحد . ثم أتى لم أنكره بالاسم » .

أعطاني تاريخ نشر المقال وتعمى لي التوفيق ، فذهبت من فوري الى دار الصحيفة التي نشرته ، وهي يومية مسائية محدودة الانتشار ، ولهذا السبب لم يتجه إليها اهتمامي في بادئ الأمر .

بحثت عن المقال دون أن أكشف لأحد عن غرضي فعثرت عليه تحت عنوان مثير ذي رنة مأساوية ، هذا نصه :

### « من يخلع الأشجار ؟ »

وتحت هذا العنوان ، عرض الكاتب لظاهرة اختفاء الأشجار من شوارع القاهرة وحدائقها القليلة المتبقية ، وقال ان الصورة المنظمة التي تتم بها عملية الاقتلاع توحى بأن ثمة أشخاص ذوي نفوذ خلفها . وتساءل عما إذا كانت هناك علاقة بين هذه الظاهرة وبين الأزمة المفتعلة في سوق الأخشاب والتي زفعت أسعارها وأوجدت لها سوقا سوداء .

نقلت محتويات المقال في كراسي ، ثم خطر لي أن أنتهز الفرصة لأواضل البحث في اتجاه جديد . فعكفت على مجلدات الصحيفة أراجعها بسرعة في أماكن محددة هي الاعلانات الاجتماعية والتجارية وأخبار الوفيات ، حوالي نفس التواريخ التي استرشدت بها من قبل .

لم أكن أتوقع كم المعلومات التي عثرت عليه عن هذا الطريق . فمثلا ، من خلال سلسلة من برقيات الشكر الموجهة منه الى رئيس الدولة ، والتهاني الموجهة اليه من عدد من الشخصيات الهامة ، علمت أنه نجح في الانتخابات العامة وصار عضوا في المجلس النيابي .

ومن نعي طويل لأحدى السيدات التي تمت اليه بصلة القرابة، تبينت الشبكة الواسعة من العلاقات التي تربطه بأشهر العائلات وأغناها ، وبشخصيات تحل أرفع المناصب في القضاء والشرطة والجيش والأدارة وعالم المال والأعمال .

وقادتني الاعلانات ، تلك الوسيلة الناجحة للتواصل بين  
أبناء العصور ، الى اكتشاف آخر مثير .

فقد لفت نظري ، سلسلة منها ظهرت بكثرة ، في السنوات  
الاخيرة ، على الصفحة الأولى من الجريدة ، عن العطور الفرنسية  
والسجائر الامريكية والاجهزة الصوتية اليابانية . وكانت مجردة  
من اسم المعلن ، بينما جرت العادة في امثال هذه الاعلانات ، على  
أن يذكر اسم المستورد أو العميل ، بلغة اللجنة ، أي الوكيل  
المحلي .

وكان من شأن العمل المتواصل الذي قمت به في الآونة  
الاخيرة ، أن نشط ذهني ، وأخذت أميل الى التغلغل في أعماق  
الامور التي تعرض لي ، واحاول استنتاج ما قد يكون خلفها من  
دوافع ، وما قد يربط بينها من علاقات . هكذا ثار فضولي ،  
فمضيت الى ادارة الاعلانات بالجريدة ، وزعمت اني مراسل  
لاحدى المجالات الاقتصادية الاجنبية ، وأنى أعد تحقيقا واسعا عن  
الدعاية التي تنشرها وسائل الاعلام العربية للسلع الاجنبية .

شغل المسؤولون في الادارة بالترحيب بي عن التأكد من  
مزاعمي ، خاصة بعد أن ابدت اعجابي بالشعارات الناجحة التي  
ترفعها اعلانات العطور والسجاير ، وترددتها الجماهير في سلاسة  
تامة . واستطعت أن اكسب ودهم عندما مازحتهم متسائلا عن  
لم يذهب بعد ، منهم ، الى الفلتر . وبذلك اصبح من السهل على  
أن أحصل على ما أشاء من معلومات .

لم أدهش عندما علمت منهم أن الجهة المحلية التي تستورد  
السلع المذكورة هي مؤسسة يديرها الابن الاكبر للدكتور من  
زوجته الاولى ، فقد توقعت شيئا من هذا القبيل . لكنني فوجئت

حقيقة ، حتى كدت أنفجر ضاحكا ، عندما أروني تصميمي لأعلان  
صادر عن نفس المؤسسة ، يعكفون على اعداده ليظهر قريبا على  
الصفحات الاخيرة بكاملها من كافة الصحف القومية .

فلم يكن هذا الاعلان ينشر المصريين باكثر من عودة الكوكاكولا  
الأصلية اليهم .







ظللت أتردد على مكاتب الصحيفة عدة أشهر ، وقد أغرتنى  
الاكتشافات التي توصلت اليها ، فضلا عن عدم مصادفتى لأي  
عقبات ظاهرة ، بمداومة البحث في نفس الاتجاه .

وخرجت أثناء ذلك بحصيلة وافرة من المعلومات ، ملأت عدة  
كراسات . حقا ان جانبا منها لم يكن وثيق الصلة بأمر « الدكتور »  
فقد اتسعت دائرة اهتمامي بالتدريج ، دون وعي مني ، وامتدت  
الى بعض الأمور العامة . وبدأ وكأن الانبياء التي سبق أن قرأتها  
في حينما ، تصافح عيني الآن للمرة الاولى . والظاهر انها  
اكتسبت عمقا جديدا بفضل المنظور الزمني ، الذي أتاح لي رؤيتها  
في ارتباطاتها المتشعبة .

وكنت أعود الى منزلي في نهاية كل يوم مرهقا ، أشكو  
الدوار وصعوبة التنفس ، فارتقي طوابقه السبع في اعياء الى  
مسكني في الطابق الأخير . وبعد أن اغتسل وأتناول طعامي ،  
أغفو قليلا ثم أنهض لأعمل من جديد ، فأنقل ما دونته في الصباح  
الى بطاقات صغيرة من الورق المقوى ، زودني بها صديق عزيز

دون أن يخفى اشفاقه على ، مسجلا في أعلاها تاريخ نشر المادة ،  
ومصدرها ، ورأس الموضوع ، توطئة لعمل تصنيف ما يساعدنى  
على الانتقال الى المرحلة الثانية من البحث . ولا انتهى من ذلك  
قبل ساعة متأخرة من الليل ، فأنام نوما قلقا تتخلله أحلام مزعجة  
يتألف معظمها من عناوين الصحف . والقليل النادر من هذه  
الأحلام كان مصدر متعة خاصة اذا ما تصدرته الصور شبه العارية  
لجميلات العالم وفاتنات السينما ، التى كانت تصادفتنى بين الحين  
والآخر .

وفى الصباح أغادر فراشى فى صعوبة ، إذ أجدنى فريسة  
لحالة من الهبوط ، يضاعف منها تمثلى للمصاعب التى ساعانيها  
فى الطريق ، قبل أن أصل الى مبنى الصحيفة ، والأخطار المبهمة  
التى تحف بعملى . ولا أستعيد حيويتى الا عندما استعرض فى  
ذهنى ماوصلت اليه من نتائج ، والعالم العجيب الذى فتحتّه  
أمامى .

والواقع أن تغييرا ما طرأ على فى الشهور الأخيرة ، فقد  
كنت فى السابق سئمت كل شيء . ولم يكن مثولى أمام اللجنة ،  
وتمسكى بالفرصة السانحة لتطوير مواهبى ، سوى محاولة من  
جانبى لتجديد الاهتمام بالحياة . ولم يلبث البحث فى أمر  
« الدكتور » أن أخذ بمجامعى ، حتى أنى بدأت أخشى الموت ،  
وأدعو الله أن يجنبنى حوادث المواصلات والازمات القلبية ، الى  
أن أفرغ منه .

واضطرت فى أحد الايام الى الانقطاع عن الخروج ، عندما  
شعرت بالإرهاق ، فجلست أراجع البطاقات التى دونتها ووضعتها  
بنظام فى صندوق أحذية من الكرتون ، ليسهل على العودة اليها ،  
واستخراج ما اریده منها .

اكتشفت أنه صار لدى كم من المادة لا بأس به ، يغطي الخطوط الرئيسية للبحث • لكنى كنت ما زال جاهلا بكثير من خليات بعض النقاط الهامة • وهى أمور لا جدوى من التماسها فى الصحف المصرية أو العربية ، التى تحول الاوضاع السياسية والتقاليد الاجتماعية بينها والخوض فى أعماق الظواهر وحقائق الأمور • عندئذ خطر لى أن أستعين بالمجلات الأجنبية • لكن أين يتأتى لى أن أجد مجموعات من الاعداد القديمة لاحداها ؟

كان الصديق الذى أمدنى بالبطاقات هو الذى اقترح على أن التمس ضالتي فى مكتبة السفارة الأمريكية • فذهبت الى مقرها الجديد ، الذى انتقلت اليه بعد أن أحرقت الجماهير الثائرة المقر القديم سنة ١٩٦٥ ، احتجاجا على مساندة الولايات المتحدة لموبوتو ، رئيس زائير التى كانت تعرف وقتها بالكنغو كينشاسا ، ودورها قبل ذلك فى اغتيال الزعيم الوطنى لومومبا •

وجدت بالمكتبة مجموعة من الاعداد المتفرقة لأشهر المجلات الأمريكية مثل « تايم » و « نيوزويك » ، فقلبت بين صفحاتها ، مركزا اهتمامى على تلك المخصصة لامور الشرق الاوسط ، دون أن أعيا بمطالعة الصفحات الاخرى أو النظر الى الاغلفة • ولهذا لم أنتبه الى أن أحد الاعداد الذى أمسكته فى يدي ، يحمل صورة ملونة للدكتور على غلافه ، الا بعد أن ألفتنى ارتجف من الانفعال وأنا أقرأ موضوعا ضافيا عنه ، غطى عددا من الصفحات ، وامتلا بقدر وافر من المعلومات المثيرة •

كان تاريخ العدد يعود الى عام مضى • أما الموضوع فكان بمناسبة زواج ابنته من رئيس عربى • وكان هذا نبأ جديدا على لأن صحفنا لم تنشر الأمر فى حينه • ويبدو أن الزواج أثار عاصفة من التعليقات وقتها ، لا بسبب فارق السن وحده ، الذى

يربو على ثلاثين من الإعوام ، وانما أسبابا بسبب المدلولات السياسية والاقتصادية له .

وانتهزت المجلة هذه الفرصة فقامت يعرض سريع لسيرته ، وكيف نشأ في أسرة فقيرة ، ثم ابتسم له الحظ عندما قامت الثورة ، بحكم قرابته لأحد الذين آلت اليهم الامور ، وهي الصلة التي مكنته من وضع أول لبنة في صرح مجده ، فبفضلها استطاع أن يحصل لأحد المنتجين السينمائيين على تصريح بتصوير ثلاثة أقلام كوميدية عن الجيش والطيران والاسطول ، مقابل المشاركة في عائدها .

ومضت المجلة فقالت أنه وقد تكون رأس المال ، لم يكن من الصعب عليه أن يضاعفه في وقت قصير . فلم يكن خطؤه أن المشرفين على الاقتصاد ، وقد استهوتهم الافكار الاشتراكية ، كبلوه بعدد من القيود التي يتطلب اختراقها ملكات خاصة وبالتالي ثمنا مرتفعا . واذا كان « الدكتور » قد استفاد من تدليل هذه الصعوبات لمن يشاء ، بحكم علاقاته الواسعة التي دعمها بسلسلة من الزيجات الناجحة ، فان الذي حقق الفائدة الحقيقية هو الاقتصاد القومي نفسه . وضربت المجلة مثلا على ذلك بدوره خلال رئاسته لأحدى شركات المقاولات التابعة للقطاع العام . فقد كان يعهد بأغلب عملياتها لشركات خاصة يشترك في ملكيتها . ومهما كان الرأي في هذا العمل ، فلا جدال في أنه ساهم في دعم النشاط الخاص وانجاز عديد من المشروعات الهامة في مجال الخدمات ، يستمتع المصريون اليوم بثمارها ، وكان من المستحيل أن تتحقق لو ترك أمرها للقطاع العام وحده .

وفي تلك الفترة تعرض « الدكتور » لجنة عنيفة ، إذ قبضت عليه السلطات وأودعته السجن . أما السبب فيصعب تحديده ،

ان تضاربت الاقاويل بشأنه . ف قيل أنه كان مشتركا في محاولة لقلب نظام الحكم ، وقيل أنه تمادى في الدعوة للأفكار الاشتراكية . وهناك من أكد أنه كان ضالعا في احدى العمليات المالية المريبة ، التي كان القانون يحرمها وقتذاك .

وتعرضت المجلة للشائعات المتباينة التي أحاطت به فوصفتها بأنها الضريبة التي يدفعها كل ناجح في البلاد العربية . وضربت مثلا بشائعة تجزم أنه حضر الحفل الراقص الشهير الذي اقيم عشية العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ في احدى القواعد الجوية المصرية . وقالت أن هذه الشائعة لا تعنى شيئا على الاطلاق ، لأن أغلب القادة المصريين حضروا هذا الحفل . أما محاولة الربط بينه ، في شائعة أخرى ، وبين تسليم الجولان ، فأمر ينقصه الدليل . ودلت المجلة على وطنيته بالدور الذي لعبه في حرب الاستنزاف ، حيث تولى مقابلة تنفيذ التحصينات الهائلة التي تكلفت ملايين الدولارات ، وان لم تتركه الشائعات وشأنه في هذا العمل الجليل ايضا .

وقالت المجلة أن مرحلة جديدة بدأت في حياته عندما تحررت مصر من السيطرة السوفيتية في السبعينات ، فنقل نشاطه الى ميدان السلاح ، الذي يحقق العاملون فيه دائما أرباحا خيالية ، وأصبح من كبار مورديه ، مما كان له الفضل في الانتصار الذي حققته حرب أكتوبر . الا أن الثمار الرئيسية لهذه الحرب ، الناشئة عن الارتفاع الصاروخي لأسعار البترول في أعقابها ، لم تسقط في يده ، وهو ما يطمح الآن لتحقيقه بزواج ابنته ، بعد أن فشل في ادراكه من خلال زيجته الثالثة التي لم تعمر طويلا .

وبالرغم من أن الدكتور لم يقوقف عن توريد الاسلحة للحروب المحدودة في الشرق الاوسط وافريقيا ، وأعلن في أكثر من مرة عزمه على تشكيل فرقة قوية من المرتزقة مستعدة لخدمة من يدفع

الثمن ، فإنه أصبح من دعاة السلام ، وعمل بنشاط في استيراد السلع الغذائية والسيارات والطائرات ، مستفيدا من سياسة الانفتاح .

وفي هذا الصدد استشهدت المجلة بالقول السائر في العالم العربي : « إذا لم يكن للدكتور أصبح في إحدى الصفقات ، كان له بالتأكيد نصيب في عائدها » .

واستطردت تقول أن الأمر لا يخلو أحيانا من بعض القصص الطريفة ، مثل قصة المليون بدلة من مخلفات الحرب القيتامية التي تبرع بها الجيش الأميركي للفلاحين المعدمين في مصر ، فوجدت طريقها الى مخازنه حيث باعها بدوره لعدد من التجار مقابل ستة ملايين من الجنيهات .

واختتمت المجلة مقالها قائلة : « ان أحدا لا يملك الا الاعجاب بحيوية الملياردير العربي ونشاطه ، ولا شك أن هذه الحيوية التي برزت في العقد الأخير ، وطبعته بطابعها ، ما زال أمامها وقت طويل قبل أن تنزوي ، رغم الثمن الذي وضعه الارهابيون لرأسه بعد ما تردد عن تعاونه مع الشركات الاسرائيلية . و اذا كانت سنة الآن ، تجعله في حاجة الى وسائل اصطناعية وكيمياوية ، أكثر من مجرد شد جلد الوجه ، تعينه على القيام بواجباته العائلية أثناء زيارته لقصوره العديدة المتناثرة في أرجاء العالم العربي ، فإنه لا يحتاج الى شيء في صفقاته المالية والعمليات السياسية التي يشارك فيها من وراء ستار . ومهما قيل بشأن مبادئه الاخلاقية ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن « الدكتور » وأمثاله ، يحملون مشعل التقدم والسلام والاستقرار للمنطقة التي طال بها التخطيط في ظل التطرف » .



نقلت المقال كاملا الى كراسى ، واستغرق منى ذلك عدة ساعات ، عدت أثرها الى منزلى راضيا ، فعكفت من فورى على تفريغه فى بطاقات مستقلة ، واطافة بعض اجزائه الى البطاقات القديمة حسب موضوعاتها .

وما أن انتهيت من ذلك حتى شعرت بأنسى قد استكملت استعداداتى ، ولم يعد أمامى ما يحول دون البدء فى المرحلة الثانية من البحث .

كنت أميل الى أن أجعل من سيرته العمود الفقرى لعملى ، فأبدأ بالاسرة التى ولد فيها ، وظروف طفولته ، ثم انتقل الى مرحلة التلمذة والمراهقة ، ومنها الى نشاطه الوطنى ثم مراحل صعوده التى يمكن حصرها بين ثلاث حروب متتابة هى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، والعدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ وأخيرا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، منتهيا بالذروة التى يحتلها الآن على نطاق العالم العربى .

لكنى لم ألبث أن تبينت الثغرات التى يمتلىء بها هذا المنهج . فالمعلومات المتوفرة لدى عن المراحل الاولى من حياته قليلة للغاية ، ولست أعرف حتى الآن ما اذا كان تلقىبه بالدكتور يرجع الى شهادة علمية حصل عليها بالفعل . كما أن التقسيم نفسه تقليدى ليس فيه شىء من ابتكار أو تفرد ، وأهم من هذا كله أنه يضعنى وجها لوجه أمام سؤال يتعين الاجابة عليه وهو : وماذا بعد الذروة ؟ وواضح للجميع العلاقة الوثيقة بين السؤال وأحد المعانى التى أعطاها العرب لمصطلح اللمعان ، وهو تحرك الجنين فى الاحشاء ، فضلا عن خطورة الاجابة ذاتها ، منذ كان التكهن بمصيره ، بعد كل هذه المعاشة والدراسة ، أمرا غير عسير .

وكنت غارقا في التفكير حتى أني لم أشعر بحلول الظلام .  
وعندما تنبهت الي ذلك أضأت المصباح الكهربائي المثبت الي مكتبي ،  
وعندئذ دق جرس الباب .

وقد سبق أن ذكرت أني أقطن الطابق السابع ، وأشرت الي  
أن المنزل بلا مصعد . فرغم أن القانون يحتم على مالك المنزل الذي  
يزيد عدد طوابقه عن خمسة ، أن يزوده بمصعد ، فإن مالك منزلي تمكن  
من التحايل على القانون بسهولة شديدة ، إذ بنى الطابقين الأخيرين  
الي الداخل قليلا ، وعندما لم يعد من السهل رؤيتهما من الطريق ،  
اطمأن القانون وسكت ، رغم ما تقدمنا به ، نحن السكان ، من  
شكاوى عديدة الي الجهات المختصة .

المهم أن هذا الوضع لم يكن يشجع أحدا على زيارتي ، وهو  
أمر لم يكن يزعجني ، بل على العكس كان مبعث راحة بالغة وخاصة  
في الآونة الأخيرة بحكم انشغالي الشديد . وإذا ما فعل أحدهم ،  
فانه يضطر بالطبع الي ارتقاء الدرج ، وعندما يبلغ الطابق الأخير  
تكون خطواته قد أبطأت من التعب ، وازداد وقع أقدامه ثقلا .  
وبسبب دقة الجدران - الناشئة عن محاولة أخرى من محاولات المالك  
للتحايل على قواعد البناء المحددة في القانون - أتمكن من سماع  
خطواته بوضوح وأنا جالس الي مكتبي ، من قبل أن يدق الجرس .

والحق أن أذني التقطتا وقع الاقدام من فترة . لكن الأمر  
لم ينتقل الي وعيي لأنني كنت غارقا في التفكير ، فلم أنتبه الي كثرة  
عدها . ولهذا السبب كانت دهشتي بالغة عندما فتحت الباب  
ووجدت ذلك العدد من الرجال والسيدات الذين احتشدوا فوق  
الفسحة الضيقة الواقعة أمام مسكني .

كان الدرج غارقا في الظلام ، لأن المالك منع عنه النور  
الكهربائي ، في محاولة للضغط على السكان كي يسحبوا شكاويهم .

ولهذا السبب لم أتبين وجوه الزائرين من الوهلة الأولى • وماليشت دهشتى أن تضاعفت بعد لحظات ، عندما تعرفت فيهم على أعضاء اللجنة التى مثلت أمامها منذ ما يقرب من عام •

دق قلبى فى عنف وأنا أتحنى عن الباب قائلاً فى اضطراب :

« تفضلوا •• تفضلوا •• لم أكن أتوقع •• لم أكن أطمع •• »•

وهذا حقيقى • فلم أتصور أبدا أن اللجنة يمكن أن تزورنى فى منزلى • بل انى فى الفترة الأخيرة ، بسبب انغماسى فى العمل ، نسيت وجودها تقريبا ، ونسيت حتى الغرض الاصلى من الدراسة التى انهمكت فى اعدادها •

لم ينتظر أعضاء اللجنة دعوة ثانية ، ودلفوا الى مسكنى الصغير ، فانتشروا فى أرجائه على الفور ، يتأملون محتوياته ، ويلقون بنظراتهم خلف قطع الاثاث وتحتها • واهتمت العانس وزميلتها العجوز بمحتويات المطبخ الذى يواجه المدخل ، بينما أحاط اثنان من العسكريين الثلاثة ذوى الرتب الرقيقة بثلاجة كهربائية قوية لدى من انتاج الصناعة المصرية فى الستينات ، وجعلا بقا-نان بينها وبين الثلاجات الحديثة المستوردة •

أغلقت الباب ووقفت حائرا عاجزا عن الفهم • بحثت بينهم عن رئيسهم الذى لا يرى جيدا ويسمع بأذن واحدة فقط ، فلم أجده • واستنتجت أنه اما لم يأت معهم أصلا أو عجز عن صعود الدرج بسبب سنه • ولاحظت وجود الرجل القصير قبيح الوجه ، وزميله الاشقر ذى العينين الملونتين • وكما حدث فى المرة السابقة لم اتمكن من احصاء عددهم ، من جراء عجزى عن التركيز ، وانشغالى بايجاد تفسير للزيارة غير المتوقعة •

قلت بصوت جاهدت أن أجعله مرتفعا ثابتا :

« هل أعد شايًا أم قهوة ؟ » .

لم يرد علي أحد فلزمت الصمت ، ورأيتهم يتجمعون أمام صفوف الكتب التي وضعتها بنظام على أرض المر المؤدى الى غرفة نومى ، ويقلبون بينها . ووجدتها فرصة نادرة - لم أتعمدها - يتبينون منها سعة اطلاعى ، خاصة وأن الكتب فى لغات متعددة ، وفروع متباينة .

انفصل الرجل القصير فجأة عن الجميع واتجه برفقة زميله الاشقر فى خطوات سريعة الى الغرفة الداخلية التى أعمل وأنام بها ، فهرعت خلفهما .

كانت هناك اكوام من الكتب والصحف والمجلات فى كل مكان ، لكنهما تجاهلها ، ووجها اهتمامهما الى المائدة الصغيرة التى استخدمها فى الكتابة . وكان سطحها مكتظا ببعض الملفات والصحف فى جانب ، وكوم من الكتب يعلوها أحد المعاجم فى جانب آخر ، بينما استقر الكراس الذى كنت أعمل به فى الوسط والى جواره البطاقات التى فرغت لتوى من ملئها ، وصندوق الاحذية الذى اصطفت به بقية البطاقات فى نظام كنت فخورا به .

دار القصير حول المائدة وجلس فوق مقعدها ، وانكب على البطاقات يفحصها باهتمام وهو لا يخفى انفعاله . أما زميله فقد وقف يقلب فى الملفات والصحف دون أن يشى وجهه بتعبير ما .

تكلم الأخير فجأة وهو يستخرج قطعة كبيرة من الورق المقوى من بين الملفات ، فقال : « ما هذا ؟ » .

كان يشير الى عدد من الصور المنتزعة من المجلات المصورة ،  
ألصقتها في براعة فوق قطعة الورق حتى بدت وكأنها صورة واحدة ،  
بتصدرها الرئيس الأميركي كارتر ، معطيا وجهه لنا ، وهو ينظر  
فوق رؤوسنا ، بما يتفق مع منصبه من جلال ، والى جواره مباشرة  
صوره صغيرة الحجم للغاية لرئيس الوزراء الاسرائيلي بيجين ،  
وقد استبدلت سرواله الطويل بآخر صغير لآحد التلاميذ ، فبدأ  
الاثنان كما لو كانا أبا وابنه • وفى نصف دائرة امامهما ألصقت  
مجموعة من صور أبرز الشخصيات فى العالم العربى ، من رؤساء  
وملوك وقادة ومفكرين ورجال أعمال ، راکعين فى وضع الصلاة  
وقد أعطوا مؤخراتهم لنا •

ابتسمت مجيبا : « انها هواية أمارسها بين الحين والآخر •  
فأنا أقصّ صور الاشخاص المعروفين من المجلات وأعيد لصقها  
على الورق المقوى بعد أن أختار لها الاوضاع التى تناسبها ، وأضيف  
اليها صوراً أخرى فى أوضاع مكملة ، الى أن أحصل على لوحة  
متكاملة » •

ظل يتأمل اللوحة باستغراب ، فأضفت بعد لحظة : « كما  
تعلمون ، فان هناك مدرسة فنية كاملة تستند فى عملها على أساس  
مشابه • وللوهلة الأولى يبدو الامر بسيطا للغاية ، لكن الوصول  
الى نتائج قيمة يتطلب النجاح فى ايجاد ارتباطات تجمع بين الطرافة  
والجدة من ناحية ، والعمق الفكرى من ناحية أخرى » •

لم يفه بشيء ، وانما وضع اللوحة على جانب كأنما يريد  
العودة اليها فيما بعد ، واستأنف البحث بين أوراقى •

أما القصير فخاطبني دون أن يرفع بصره لحظه عن البطاقات التي كان يفرزها في عناية : « لم تكن نتصور أنك جمعت هذا القدر من المعلومات . انه أمر يثير الاعجاب حقا ، بقدر ما يدعو للأسف » .

لم يدهشني معرفة اللجنة بما أفعل ، ولا استخدام القصير للغة العربية في حديثه ، لأني كنت متأكدا من اجادة اعضاء اللجنة لها . لكنني انزعجت لكلمته كثيرا ، وانتظرت في قلق أن يوضح ما يعنيه .

رفع الى عينيهِ فاكتشفت لأول مرة أن بهما حولاً منفرا زاد خلقته قبحا على قبح ، ومضى يقول :

« كنا نظن أن العقبات التي صادفتك ستصرفك الى موضوع آخر . والواقع أننا كنا نتمنى ذلك لأننا . . لأن هناك بين الاعضاء الموقرين من يعلق آمالا كبيرة عليك » .

غاض الدم من وجهي وتعلقت عيناى بعينه القبيحتين ، بينما استعرد وهو يتخلى عن البطاقات ، ويتراجع بكرسيه الى الوراء :

« يمكنك أن تقرر لنفسك الآن ، ما اذا كنت ستستمر في هذا الموضوع أو تنتقل الى غيره . فنحن لا نقسر أحدا على شيء » .

قلت بانفعال : « بعد كل هذا الوقت ؟ . . لقد أوشك العام على الأنصرام » .

قال بحزم : « هذه نقطة غير مهمة . فيوسع اللجنة أن تعطيك من الوقت ما تحتاج اليه » .

ضممت يدي وضغطتهما في عنف وأنا أقول في صوت متوسل،  
متغلبا على كراهيتي له التي كان هو مبعثها :

« لكنى قطعت شوطا طويلا وقاربت على الانتهاء » .

قال أحد العسكريين الذي دخل الحجرة أثناء الحوار واستمع  
إلى شطر منه :

« ولم تفكر في مغزى ما تقوم به ونتائجه ؟ » .

قلت مدافعا عن نفسي :

« لقد قمت ببحث رائده الموضوعية الشديدة . ولم أعن بغير  
الحقائق المؤكدة والتعليقات العلمية . وقد انتهيت تقريبا من جمع  
المعلومات الضرورية وترتيبها . ولم يعد أمامي سوى استخلاص  
مدلولاتها ، والربط بينها في تحليل كامل متسق » .

قال القصير في حدة : « وهذا بالضبط ما حفزنا إلى الحضور  
لمتوجيه النصح اليك » .

كان بقية أعضاء اللجنة قد أخذوا يتوافقون ، فجلست  
السيدتان على حافة الفراش ، وبجانبيهما أحد العسكريين . واستقر  
عسكري آخر على مقعد بدسنيين إلى جواره . وانضم الثالث  
وبعض الأعضاء إلى العضو الأشقر عند المائدة . واستند آخرون  
إلى مسندى المقعد وخزانة الملابس وباب الغرفة . وقدم اليهم القصير  
بعض البطاقات ، لاحظت بينها تلك المستقاة من المجلة الأمريكية ،  
افتناقلوها بينهم في صمت ، ثم جعلوا يتطلعون إلى ، وقد أحاطوا  
بى في شبه حلقة .

توجهت اليه بالحديث مستعظفا :

« لقد اخترت شخصية الدكتور بعد تفكير وتمحيص طويلين •  
فانتقاء ألمع الشخصيات في العالم العربي أمر بالغ الصعوبة بحكم  
تعدد البلاد وانتشار التعليم وتنوع وسائل الدعاية وكثرتها  
وبالتالي •• »

قاطعنى القصير فى غضب :

« وبالقالى وجود كثير من الشخصيات اللامعة ، ها أنت تعترفه  
بالأمر » •

أجبتة فى حماس :

« لكننا لن نجد من هو ألمع وأكثر حضورا فى كل مكان  
بالعالم العربى • ويكفى أن فكرة الوحدة العربية ترتبط باسمه هو  
بالذات ارتباطا وثيقا • فهو من دعائها الاولين ، كما هو معروف •  
لكن ما يجهله كثيرون ، وما أثبتته بالوثائق ، أنه أيضا من أبرز  
دعائها والمؤمنين بها فى هذا العقد الذى انحسرت فيه الدعوة •  
والمثير فى الأمر أن الوحدة التى لم تتحقق فى فترة صعود الدعوة  
اليها ، قد تحققت الآن فى فترة انحسارها ، وهو ما لا يتبدى للرأى  
من الوهلة الاولى عندما يجابه بالاختلافات والمنازعات السائدة بين  
الأنظمة المختلفة • لكنه اذا ماتمعن الامر ، وجد تحت هذا السطح  
الخداع وحدة متينة لم نعهد مثلها قبل الآن ، يرجع اليه الفضل فى  
تحقيقها ، وهى وحدة السلع الأجنبية المستخدمة من الكافة •

« وأؤكد مرة أخرى أن الوثائق التى جمعتها قد أثبتت علاقته  
الوثيقة بكافة الاحداث المصيرية التى تعرضت لها أمتنا طوال



الاعوام الثلاثين الماضية . واليوم تتجمع في يده ، أكثر من أى يوم سابق ، أو أى شخص آخر ، الخيوط الاساسية لمستقبلها .

« ويكفى للتدليل على ذلك أنه هو الذى توسط لدى الشركات العالمية العملاقة من أجل امداد امتنا بأحدث الأجهزة والابتكارات التى وصلتنا بحضارة العصر ، بدءا من حقائب السامسونايت والترانزستورات الى الالكترونات وطائرات الجامبو ، ومن معاجين الاسنان والحلاقة الى معطرات الفروج وعقاقير الفحولة . وفى هذا الاطار أوجد مجالا واسعا للكفاءات من العلماء وأساتذة الجامعات وخبراء التخطيط الذين عنت الانظمة العربية باعداد المئات منهم ثم حالت بينهم بين استثمار مواهبهم بصورة تعود عليهم وعلى أمتهم بالنفع .

« على أن هناك جوانب أخرى للموضوع ، أرجو أن يتسع صدركم لسماعها . فقد استهوتنى شخصية « الدكتور » لأنى وجدت فى تناولها مجالات متعددة للبحث تكشف لكم عن مواهبى المتنوعة من ناحية ، وتعطى للدراسة نفسها أبعادا مختلفة تغنيها وتضفي المزيد على أهميتها ، من ناحية أخرى .

« ولقد كنت أفكر فى هذه النقطة بالذات عند تشريفكم لى . وقدرت أن المنهاج التقليدى فى التناول ، الذى يقوم على تتبع تطور السيرة الشخصية ، يجب أن يستبدل بمنهاج آخر مبتكر يتألف من عدة مباحث فى فروع مختلفة من العلوم .

« فهناك مبحث هام فى علم الجمال عن العلاقة بين الوطنية المتطرفة وخلع الأشجار ، يتصل به بحث آخر فى الاقتصاد عن دور البيع والشراء فى حياة الأمم والأفراد ، وثالث فى علم الاخلاق

حول اندثار الامانة والصدق والشرف ، ورابع فى السيكلوجيا:  
عن عوامل القلق التى تدفع العباقره والرواد الى القنقل بين ميادين  
النشاط ، وهى دراسة قد تؤدى الى اكتشافات هامة بالنسبة لطفولة  
« الدكتور » وظروف رضاعته .

« وثمة مبحث خامس فى علوم السياسة والادارة حول فن  
صياغة وعى الجماهير ، وتوحيد معتقداتها وأنواقها ثم استبدال  
هذه المعتقدات والانواق بغيرها ، بين الحين والآخر ، فى سهولة  
ويسر .

« وانه ليسعدنى أن أعلن بكل فخر ، انى قد عثرت على قصائد  
رقيقة مجهولة من نظمه ، واشارات متناثره الى آرائه فى المسرح  
والسينما والغناء ، تصلح أساسا لدراسة مبدعة فى آداب العصر  
وفنونه .

« ويتصل بذلك مبحث مستقل عن التطور الذى لحق باللغة  
العربية ويتمثل فى اختفاء كلمات معينة ، وظهور كلمات جديدة ،  
بعضها منحوتات فذة ليست لها سابقة مثل « التهليب » و  
« التطنيش » ، والبعض الآخر اشتقاقات مبتكرة من كلمات مألوفة  
مثل « التنويح » و« التطبيع » و « التحريك » .

« وقد أوحى لى ما يتميز به الدكتور من مرونة فى التفكير ،  
وقدرة على تعديل المواقف والآراء التى يثبت خطؤها ، أو يتعذر  
تحقيقها ، ببحث فريد فى علوم التربية وبناء الشخصية ، وبسبب  
ما أعلقه من أهمية خاصة على هذا البحث أرجو أن تسمحوا لى  
بشئ من الاستطراء فى هذه النقطة بالذات لأقدم الى حضراتكم  
مثالا لما أعنيه ، مستمدا من وقائع المقابلة الأولى التى تشرفت بها  
فى مقركم . وأقصد بذلك حديثى المستفيض بشأن الكوكا كولا .

« فهذه الزجاجية ، كما تعلمون حضراتكم ، دخلت بلادنا في أواخر الأربيعينات وأوائل الخمسينات ، في ظل حملة اعلانية هائلة سهلت من انتشارها حتى بلغت أقاصى القرى والنجوع ، وصار اسمها على كل لسان . لكنها لم تلبث أن بدأت في التراجع بعد الثورة . وقد تبين أن الدكتور كان ، مع عوامل أخرى ، مسؤولاً عن هذا التراجع ، ذلك أنه شارك في محاولة لمنافستها بشراب محلى كتب لها النجاح الى حين . »

« أما الضربة القاصمة فجاءت في بداية الستينات عندما اكتشفت أجهزة المقاطعة العربية أن الشركة الامريكية أعطت حق التعبئة للاسرائيليين . وترتب على هذا أن وضعت الكوكاكولا في القائمة السوداء ومنعت من دخول البلاد العربية ، فأصبح السوق خاليا أمام الدكتور . »

« الا أن الأحوال لا تثبت على حال كما تعلمون . فمن ناحية فشل مشروع الدكتور لأسباب عديدة ، لا محل لسردها الآن ، ومن ناحية أخرى ، لم تعد للمقاطعة المذكورة ، بين ليلة وضحاها ، من ضرورة . وكان الدكتور قادرا ، في الوقت المناسب ، على الربط بين الأمرين . وسبق بجهوده من أجل ازالة العقبات والحواجز التي فصلت طويلا بين الشراب المنعش وعشاقه من المصريين . وكافأته الشركة على جهوده بأن منحته امتياز التعبئة في زجاجة وطنية . »

« ولعلكم توافقوننى ، أيها السادة والسيدات ، على أن هذا الاجراء من جانب الكوكاكولا هو ، من أحد نواحيه ، بمثابة شهادة بارزة في حق الدكتور ، بالنظر الى أن الشركة الأم لا تعطى هذا الامتياز الا لألعم الناس في كل بلد . »

« وأرجو المعذرة اذا كانت هذه النقطة ذكرتنى بمجال آخر واسع ، تفتحه سيرة « الدكتور » أمام الباحث الطموح ، وأقصد بذلك حياته الجنسية التي اتسمت بنشاط غير عادى • فمثل هذا النشاط قد تكون له أوجه متباينة للغاية • فمن خصوبة زائدة يمكن دراسة أسبابها للاستفادة منها وتعميمها ، الى محاولة دائمة لنفى ميول لوطية كامنة ، أو بحث عن الأم تمخض عما يتجلى فى سلوكه الاقتصادى بوضوح من قلق دائم ، ورغبة جارفة فى الانتماء » •

شعرت أن حلقى جف ، فتوقفت عن الكلام ، وتأملت وجوههم لأتبين أثر حديثى ، لكن ستارا كثيفا من الجمود كان يغطيها •

بللت شفتى بلسانى ، ثم استجمعت قوتى فى محاولة أخيرة ، فانطلقت أقول :

« وأحب أن أصارحكم أيها السيدات والسادة ، بشيء آخر له أهمية خاصة • فقد كشفت لى الدراسة التي قمت بها عن عديد من العلاقات والارتباطات الخفية بين مجموعة من الظواهر المتنوعة والغريبة • وأعتقد أنى قادر ، فى وقت قريب للغاية ، على أن أميط اللثام عن بعض الألغاز والفوازير التي حيرت الكثيرين حتى الآن » •

بدا عليهم الاهتمام فجأة ، فأضفت فى صوت حساوت أن أضمنه كل ما أملك من رقة ولطف :

« انى واثق أنكم من السماحة وسعة الصدر بحيث ستتيحون لى مواصلة العمل الذى بدأتاه » •

تكلم الرجل الاشقر فى لهجة صارمة : « نحن لا نرغمك على شيء ، فأنت حر فى الأمر » •

وتطلع الى ساعة يده وهو يفكر بعمق ثم أضاف :

« سننصرف الآن ، فلا يمكننا البقاء أكثر من ذلك . وسيبقى رفيقنا ( وأشار الى زميله القصير ) معك الى أن تنتهي الى قرار » .

مد يده فتناول لوحة الرئيس كارتر . وجمع الرجل القصير البطاقات التي تضم مقال المجلة الأمريكية ، والكراس الاصلى الذي نقلت عنه ، وقدمها الى زميله الأشقر فأخذها في صمت . ولم أجرؤ على الاعتراض .

اتجه الأشقر الى باب الغرفة ، وتبعه بقية الأعضاء ، بينما ظل القصير جالسا الى مكتبي . وعندما أردت مرافقتهم ، أشار لى أن أبقى فى مكانى .

قلت محتجا : « أخشى أن يتعثروا فى الظلام ، فالدرج بلا نور ، كما لعلك لاحظت . ويوسعى أن أعاونهم بمشعلتى الكهربائى » .

أجابنى فى قحة : « معهم مشاعلهم وليسوا فى حاجة الى معاونتك » .

أنصت لوقع أقدامهم فوق الدرج ، ولصوت الباب الخارجى عندما أغلقه آخر من خرج منهم ، بينما كنت أتأمل الوجه القبيح الذى بقى معى ، وقد هبط على ادراك مفاجيء بانى وقعت أخيرا فى يده .

لكنى شعرت فى نفس الوقت أن المحنة المقبلة ، التي سيتوقف عليها مصيرى ، ستكون فاصلة فى شأنه هو الآخر .









جلست على حافة الفراش ، وأشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة وأنا أحاول استيعاب التطورات الأخيرة المتلاحقة . وأردت ، قبل كل شيء ، أن أفهم الوضع الجديد ، فقلت للقصير الذى لم يغادر مكانه خلف مكتبى :

« انى أرحب بك فى مسكنى ، أنت وبقية أعضاء اللجنة الموقرة . لكن ثمة ما أريد أن أستوضحه . وأعنى أن الوصول الى قرار فى هذا الأمر قد يستغرق بعض الوقت » .

أجاب : « خذ من الوقت ماتشاء . لكن المهم أن تصل ، فى النهاية ، الى قرار » .

قلت فى رقة بالغة : « ربما تطلب ذلك عدة أيام » .

قال بحسم : « يجب أن تفهم جيدا انى باق هنا الى أن تحزم أمرك ، ولو بعد عام . والأفضل لك ، بالطبع ، أن تتمكن من ذلك فى أقرب وقت » .

ران علينا الصمت بضع لحظات ، تمعنت خلالها فى كلماته وما تحملها من مدلولات ، الى أن استأنف الحديث :

« ليس من حقي أن أتدخل في شأن قرارك ، إلا أنى على استعداد لمساعدتك بصفة شخصية. »

قلت : « أشكرك على هذه الروح . وما دمت تحدثت عن المساعدة ، فماذا تقترح على ؟ »

قال : « لقد عرضنا عليك استبدال شخصية الدكتور بغيرها ، لكن اللجنة لن تعارض في أية بدائل أخرى . فعلك تجد صيغه ملائمة ، تسمح لك بمواصلة العمل في نفس الموضوع »

لاح لى بصيص من الأمل ، فهتفت :

« ليس عندي مانع . فكيف أفعل إذن ؟ »

أجابنى في لهجة اشتممت منها شيئاً من التشفى : « هذا شأنك . فكر »

لكنى عجزت عن التفكير رغم ما بذلت من مجهود . واشتد احساسى بجفاف حلقى ، فبلعت ريقى عدة مرات ، وأخيراً عرضت عليه أن نشرب شايًا .

قال فى شيء من السخرية :

« اذا كان الشاي سيساعدك على التفكير ، فلا مانع لدى »

نهضت وافقا وغادرت الحجرة ، فترك مقعده وتبعنى . اجتزت الردهة وهو ورائى الى أن بلغت المطبخ . ووقف فى مدخله يرقبني وأنا أملاً الغلاية من الصنبور ، وأضعها فوق موقد الغاز ثم أشعله .

ولم أدرك الموقف تماما الا عندما أردت التبول ، فغادرت المطبخ وعدت ادراجى فى الردهة نحو الغرفة الداخلية التى يقع الحمام

الى جوارها • فما أن دخلت الحمام واستدرت أغلق الباب ، حتى  
وجدته قد لحق بي ، ودفع الباب جانبا ليحول دون اغلاقه ، ثم وقف  
فى مدخل الحمام ، قريبا منى ، الى أن فرغت من امرى •

قلت وأنا أتقدم من الحوض وأفتح الصنبور :

« أتظن أنى سأهرب منك ؟ »

أجاب بقحة : « لا شأن لك بما أظنه » •

غسلت يدي ووجهي ثم جففتهما • وعدت الى المطبخ وهو فى  
أعقابى •

صنعت الشاي وصبيته ، ثم ناولته كوبه ، وحملت كوبى ،  
وتقدمته من تلقاء نفسى ، الى الغرفة الداخلية •

رأيته يتجه الى مكتبى ، فاستوقفته قائلا :

« أريد أن أطلب منك معروفا » •

قال بحذر : ما هو ؟ » •

قلت : « أن تجلس فى هذا المقعد وتترك لى مكانى عند المكتب » •

تأملنى لحظة ثم طاف بعينيه فى أرجاء الغرفة ، الى أن  
استقرتا على المقعد ذى المسندين ، فتفحصه يامعان ، كأنما يبحث  
عن سر خفى لطلبى ، أو خازوق ما ، وأخيرا هز كتفيه وقال :

« لا بأس » •

احتلت مكانى المفضل عند المكتب ، فأصبح الجدار - وهو  
الجدار الاخير للمسكن كله - من خلفى ، والباب من أمامى • ولم  
أكن أشعر - عادة - بالطمأنينة ، الا فى هذا الوضع •

ولما كان المقعد ذو المسندين بجوار الباب ، بينه وبين الفراش ،  
فقد صار القصير فى مواجهتى مباشرة • وهو ما جعلنى أندم فى  
الحال على السعى وراء طمأنينة واهمة •

قدمت اليه سيجارة فقال أنه لا يدخن حفاظا على صحته •  
وأسرعت بإشعال سيجارتى ، وقد خفت أن يفرض على مراعاة موقفه  
من التدخين • لكنه انشغل عنى بقائل لوحة المرأة العارية المعلقة  
فوق رأسى •

قلت معقبا على اهتمامه : « انها لحمود سعيدة ، كما لعلك  
حزرت • ولا يقتصر جمالها على روعة الألوان واحكام التكوين •  
قلعك لاحظت الغموض الذى يتجلى فى نظرة العينين ووضع  
اليدين • وفى رأى أنها تحمل قدرا منه يماثل ذلك الذى تحمله  
لوحة الموناليزا الشهيرة » •

ظهرت على وجهه لأول مرة ابتسامة ملتوية • وفوجئت به  
يغمز لى باحدى عينيه قائلا :

« هل لديك صور أخرى من هذا النوع ؟ » •

أجبت : « فهمت ما تقصده • للأسف أنى لست من المغرمين  
بالصور العارية ، وانما أفضل الكتب الاباحية • ولدى مجموعة  
من هذه الكتب اذا أحببت أن تلقى عليها نظرة • » •

قال : « فيما بعد • فأمامنا وقت كاف ، فيما يبدو • الا أنى  
لا أفهم وجه اعتراضك على الصور العارية • » •

قلت : « لأنها لا تقدم الا لحظة ثابتة ، لا تكشف عن أية أعماق •  
أما الكتاب فيلقى شيئا من الضوء على السلوك الانسانى • فمهما  
بلغ الكاتب من تبذل وسوقية واغراق فى الخيال ، فانه مضطر لأن  
ينهل من تجاربه الواقعية ، وهو سيكشف ، شاء ام لم يشأ ، عن

جانب من اللاوعى الانسانى بحكم كشفه عن لا وعيه هو .  
والنتيجة فى النهاية يمكن أن تكون مصدر معرفة ، بقدر ما هى ،  
بالتأكيد ، مبعث متعة .

لم تبد عليه الرغبة فى متابعة الجدل ، اذ تشاغل بارتشاف  
الشئ فى صوت مزعج ، وهو ينقل البصر بين الكتب والاسطوانات  
الموسيقية التى ملأت عدة رفوف معلقة خلفى . ووجدت فى ذلك  
فرصة لمحاولة ترتيب الافكار التى كانت تصطبغ فى رأسى .

هالنى أن أبدأ البحث من جديد ، بفرض أنى وجدت الشخصية  
التى يمكن أن تحل محل « الدكتور » ، أى تتوفر فيها الخصائص  
التى جعلت منه ألمع شخصية عربية معاصرة ، وتستحوذ فى الوقت  
نفسه على جل اهتمامى ، وشغفى .

وما أدرانى أنهم ، بفرض انى عثرت على شخصية أخرى ،  
لن يزورونى بعد عدة أشهر ليطالبوا منى استبدالها من جديد ؟

عجبت لتمسكى بالدكتور ، كأنما سحرتنى شخصيته ، أو صار  
وجودى مرتبطا بوجوده . واذ أوليت الأمر الآن كل تفكيرى ، رأيت  
أننى ، من خلال الظواهر الغامضة التى صادفتنى أثناء البحث فى  
أمره ، والمعلومات الغريبة التى جمعتها وسهلت لى ادراك أشياء  
كثيرة ، أعيانى فهمها من قبل ، قد وجدت أخيراً معنى للحياة ، لست  
مستعداً لأن أفقده ، كى لا أعود الى ذلك الخواء المؤلم الذى كنت  
أعيش فيه . وهل يتخلى الغريق عن قطعة الخشب التى يمكن أن  
تؤدى به الى النجاة ؟

لم يعد أمامى أذن سوى أن أقصر تفكيرى على السبيل الذى  
المح اليه ضيفى منذ قليل .

على أنه كان ثمة مغزى لاقتراحه ، وللتطورات الاخيرة برمتها  
لم يفوتنى ادراكه . فحرية الحركة والمناورة التى أتاحت لى حتى  
الآن ، ومكنتنى من الافلات من الشباك المنصوبة ، قد تقلصت للغاية  
حتى أوشكت أن تنعدم تماما .

وضايقتنى هذه الفكرة للغاية حتى انى عجزت عن مواصلة  
التفكير . فقررت أن أوجل الأمر كله الى الصباح ، إذ مازالت عادتى  
أن ألتمس فى النوم مهربا .

قلت للقصير بعد قليل : « الوقت تأخر ، ولعلك تود أن تأكل  
شيئا . »

قال : « كلا ، فقد تناولت عشائى قبل مجيئى . يمكن أن تأكل  
أنت اذا شئت . »

قلت : « صددت نفسى ، فقد استولى على التعب ، وأريد الآن  
أن أنام . فأين تود أن أعد لك فراشك ؟ »

سألنى بدوره وهو يشير الى الفراش : « أليس هذا سريرك؟ »  
اجبت : « أجل . بوسعى أن أعد لك فرشاً آخر فى الصالة .  
أو تنام أنت هنا ، وأنا فى الصالة . »

قال فى حسم : « لا هذا ولا ذاك . سأنام بجوارك على هذا  
السريـر . »

انزعجت للغاية من قوله ، فلم أكن قد نسيت بعد ماجرى لى  
فى المقابلة الأولى مع اللجنة . وتأملتة فوجدته قويا مدكوكا رغم  
كهولته ، لا قبل لى بمقاومته ، او الاشتباك معه .

واكتشفت أنه أحضر معه حقيبة سامسونايت ، فتحها الآن وأخرج منها حافظة جلدية لادوات الزينة ومنشفة وخفا من القماش . وحرص أثناء ذلك على ألا يمكنني من رؤية محتويات الحقيبة الى أن أغلقها . وانتظر حتى رأني أتقدم الى الحمام ، فألقى بمنشفته على كتفه وتبعني .

باشرت بغسل أسناني ، بينما أخرج هو من حافضته الجلدية، فرشاة للأسنان ومعجوننا أجنبيا وصابونة فرنسية معطرة . وانتهيت من الاغتسال بسرعة ، فتركت له الحوض ، وانتهزت الفرصة لأتبول وأملأ الاواني البلاستيكية من صنوبر حوض الاستحمام . فلأن المياه لا تصل الى الطابقين الأخيرين الا ليلا ، يتعين على أن أجمع منها ، كل ليلة ، ما يكفي للنهار التالي .

وقد شرح لي هذا كله للقصير عندما سألني عن حكمة ما أفعل . وأبقيته واقفا في مدخل الحمام ريثما ملأت عدة أوعية . فلاحظ أن مياه الحنفية لا يلبث لونها ، في الوعاء ، أن يتحول الى صفرة داكنة، ثم يميل الى السواد . وكان هذا أمرا عاديا في نظري ، الا أنه أعرب عن دهشته قائلاً أنه لم يسبق له أن رأى مياه الحنفية بهذا اللون .

قلت : « لا بد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟ » .

قال مستغربا : « أجل . كيف عرفت ؟ » .

ابتسمت وأنا أغلق الحنفية بعد امتلاء الوعاء الاخير ، ثم أجبته :

لقد عرفت أشياء كثيرة في الآونة الأخيرة » .

مضيت الى المطبخ ، وهو خلفى ، فمألت عدة زجاجات وأواني  
بالمياه من أجل الشرب والطهى • وأحكمت اغلاق صنبور أنبوبة  
الغاز • وأوشكت أن أقوم بجولتى المعهودة قبل النوم ، التى أغلق  
فيها النوافذ ، وأحكام رتاج الباب الخارجى ، لكنى تداركت نفسى  
عندما تبينت أنه ليس ثمة مأخشاہ - هذه الليلة على الأقل - من  
الخارج •

عدنا أخيرا الى الغرفة الداخلية ، فأخرج من حقيبته منامة  
حريرية مزركشة • واقترحت عليه أن يستبدل ملابسه فى الحمام ،  
أو أغادر الغرفة حتى يفعل • ومن الطبيعى أنه ماكان ليوافق • أما  
فلم أعبأ بالأمر ، لأنى لا أجد غضاضة فى أن أتعرى أمام رجل مثلى ،  
فما بالك اذا كان هذا الرجل على معرفة سابقة بأكثر أجزاء جسمى  
حميمية ؟

لكنى لم أكد أخلع ملابسى الخارجية وأقف أمامه بالقميص  
والسروال الداخليين ، حتى شعرت بالحرج عندما تطلع الى • ولم  
أملك أن اختلست النظر الى فخديه العاريين ، فهالنى امتلاء ما بينهما ،  
وقدرت أنه اما أن يكون مصابا بفتق قديم ، تدلت معه امعاؤه فى  
الخصية ، أو أنه قد حوبى ، عند خلقه ، بشيء من السخاء غير  
المألوف •

أردت أن أثير موضوع الرقاد من جديد ، فقلت فى انفعال  
مفاجىء :

« ربما تحب أن تقرا قبل النوم • وفى هذه الحالة لا بد أن  
ينام كل منا فى حجرة ، لأن النور يزعجنى ، وأريد أن أنام على  
القور » •



قال بهدوء : « لاتقلق • لن أقرأ شيئاً ، فأنا أيضا أريد أن  
أنام الآن » •

تقدمت من الفراش بخطى متثاقلة • وسمعتة يطلب منى بنفس  
الصوت الهادئ ، أن أسبقه داخل الفراش ، كي يرقد هو على طرفه  
الخارجي • فأنصعت لرغبته ، واستلقيت على ظهري الى جوار  
الحائط • وما لبث أن انضم الى بعد أن أطفأ النور •

وغنى عن القول أن النوم لم يجد الى جفونى سبيلا • فرغم  
حاجتى الشديدة اليه فى نهاية يوم موهق ، وأساسا كي أنهض  
منتعشا فى الصباح ، قادرا على تدبر العضلة التى تواجهنى ، فان  
جهلى بمدى مايمكن أن يذهب اليه جارى فى الفراش ، نيه كل  
حواسى ، وبالأخص اذنى •

وفى البداية ، غطى وقع الدقات السريعة لقلبى على أصوات  
الليل المعهودة • وعندما هدأت قليلا ، تبينت حشرجة المواسير ،  
وصياح جارى فى أطفاله ، وصرير اناء معدنى يوضع تحت الحنقية  
فى المسكن الذى تحتى ، ونباح الكلاب فى شوارع الحى •

والغريب أن هذه الأصوات التى طالما أثارت حنقى ، وحرمتنى  
من النوم ، غدت الليلة مصدر طمأنينة ، وخففت من توتر أعصابى

الا أنى لم ألبث أن انتفضت عندما دوت طلقات الرصاص فى  
سكون الليل معلنة بدء الحملة على الكلاب •

وكنت أعرف أغلب هذه الكلاب • وأرى أجسادها الهزيلة  
بالنهار ، فى شوارع الحى وعند أقمام الزبالة • كانت جبانة ،  
لا تملك القوة على ايذاء أحد ، وكل ما تملكه هو عقيرتها التى  
ترفعها بدون مناسبة ، وخاصة بعد أن يهجع الناس •

ويبدو أن هذا النباح الذي تتضخم أبعاده في هدأة الليل ،  
قد أتى مسامع أحد الشخصيات اللامعة من سكان الحي ، فاستأجر  
من يتصيدا • وأصبح النباح يختلط في أغلب الليالي بطلقات  
الرصاص ، ثم يتباعد تدريجيا الى أن يتلاشى •

وفي اليوم التالي ، أو الذي بعده ، يعود النباح الى سابق  
عهده ، كأن شيئا لم يكن ، فتدوى طلقات الرصاص من جديد •

لم يأبه جاري لطلقات الرصاص ، وظل راقدا على ظهره في  
سكون وحبست أنفاسي عندما تحرك فجأة ، وانقلب على جانبه  
الايسر ، بحيث صار وجهه ناحيتي •

أنتنى رائحته المعطرة فملائتني بالتقرز • وخيل الى من انتظام  
تنفسه بعد قليل أنه استغرق في النوم • فاستدرت على جانبي الايمن  
بحيث واجهته • وتطلعت الى وجهه في الظلام •

كانت عيناى قد ألقا غياب الضوء ، فأمكننى أن أتبين موقع  
عينيه ، وفوجئت بهما مفتوحتان ، ترمقاني في انتباه •

أغلقت عيني على الفور وتظاهرت بالنوم وأنا أراقبه من تحت  
أجفان نصف مغلقة •

بدرت حركة من يده ، فحبست أنفاسي في هلع وقد تبادر  
الى ذهني أنه سيلمسني • لكنه لم يفعل ، وترددت انفاسه في  
انتظام • وخيل الى أنه أغلق عينيه ، لكنى لم أستسلم للاوهام ،  
فربما كان يفعل مثلى ويرقبني من بين جفونه •

تعذر على النوم ، خاصة بعد أن فرضت مشكلتي نفسها على  
فكري • وعندما حاولت الهرب منها بالتفكير في شيء غيرها ،

فتحت بابا طالما جاهدت فى اغلاقه . وكأئنا كانت الصبور  
والذكريات تنتظر خارجه ، فسرعان ما تدافعت داخل رأسى .  
ولم تلبث أن تراءت لى بجلاء نقاط ضعفى وسوءاتى . وتضخم  
احساسى بتفاهة شائى ، وبالحظات التى سمحت لنفسى فيها أن  
أكون أضحوكة للآخرين ، والعبوة فى أيديهم ، وبالطرقات الجانبية  
التى لم أمنع نفسى من الانقياد إليها ، وبالمتع الصغيرة التى  
استسلمت لها ، وتركتها تتحكم فى .

وما عتمت هذه الأمور ذاتها أن بدت محل شك ، إذ جرفتنى  
موجة مألوفة منه ، ألفت ظلالها على مناحى حياتى وأهدافها . ولم  
تسلم من ذلك المتع الجنسية التى تحتل مكانا بارزا من وجدانى .  
فعندما استدعيت - فى محاولة مستميتة للخلاص - ما يخزنه عقلى  
من صور واقعية ورؤى خالية ، طالما بعثت الدماء فى عروقى ،  
ألفيتنى غير مبال ، عازفا عن كل وعد بالبهجة .

ويبدو أنى غفوت قليلا قرب الفجر ، وأنى تقلبت بحيث  
أعطيته ظهرى ، فقد تنبهت فجأة على ارتطام شىء صلب بفخذى .

اعتدلت فوق ظهرى على الفور وتطلعت نحوه ، فرأيته فى  
ضوء الفجر الخفيف يرمقنى بعينين يقظتين . لكنه كان بعيدا عنى بمسافة  
كافية ، مما دفعنى الى الظن بأنى كنت أحلم . وهو ما يعطيكم  
صورة عن الهواجس التى كانت تعتمل فى داخلى .

ومن الطبيعى أنى لم أتمكن من النوم بعد ذلك . وعندما  
تسللت أشعة الشمس الى الحجرة قررت القيام . وسبقنى هو  
فغادرنا الفراش سويا . ومضينا الى الحمام ، فتبولنا واغتسلنا .

ورأيتهُ يستخرج أدوية الحلاقة من حافظته الجلدية ، فقررت أن أحلق بدورى ، سعيا وراء شىء من الانتعاش ، ولأشغل نفسى حتى ينتهى ، فقد كنت واثقا أنه لن يدعى أغادر الحمام قبل ذلك .

وقفنا متجاورين أمام المرآة المعلقة فوق الحوض . ورقعت إليها عينين حمراوين دامعتين ، فالتقتا باثنتين تفيضان حيوية ونشاطا ، كأنما نعمتا بالنوم طوال الليل . وطالعتنى فيهما نظرة ثابتة حرت فى تفسيرها ، بسبب حولهما فى الغالب ، فاضطربت آلة الحلاقة فى يدي مما تمخض عن جرح خفيف أسفل نلقى .

وكان ذلك قميئا بأن يرسل القشعريرة فى جسدى ، لأنى لم أكن أحتمل مشهد الدماء أو فكرة الألم . لكنى رأيتنى أتأمل جرحى ، وخيط الدماء الذى انسمال منه ، بمشاعر أقرب ما تكون الى القبول .

نبهنى رفيقى من استغراقى فى تأمل دمائى ، بأن قدم الى من حافظته الجلدية ، زجاجة صغيرة للمياه العطرية ، كى أعالج بها الجرح . لكنى اعتذرت شاكرا ، ووضعت رأسى كله تحت الصنبور وتركت المياه القليلة التى سالت منه تغسل الجرح وتكتمه .

عدنا الى الغرفة بعد أن جففت رأسى ، وألصقت قطعة صغيرة من القطن بمكان الجرح ، فاستبدلنا ملابسنا ، وبينما اكتفيت بقميص وبنطلون ، ارتدى هو ملابس الكاملة ولم ينس أن يعقد رباط عنقه .

انتقلنا الى المطبخ ، فصنعت الشاي . ولم أجد فى الثلاجة سوى ثلاث بيضات ، وضعتها على النار فى قليل من المياه ، بعد أن استطلعت رغبة ضيفى فى هذا الشأن . وأخرجت أيضا قطعة

من الجبن ، وأخرى من الحلاوة الطحينية ، وقدرا من الزيتون الأسود .

جلسنا أخيرا ، متواجهين ، الى مائدة الطعام ، بعد أن قدمت اليه بيضتين من الثلاث المسلوقة ، وخصصت نفسى بالثالثة ، ولم يعلق بشيء على هذا التوزيع غير المتكافىء ، وإنما أقبل على الطعام فى شهية بالغة ، بينما أكلت فى غير حماس .

فرغنا من الأكل سريعا ، فصببت الشاي ، والتقطت الصحف التى ألقى بها البائع - كالعادة أسفل باب المسكن ، فأعطيته واحدة ، واحتفظت بأخرى .

وكنت قد درجت فى الفترة الأخيرة على الجمع بين أربع عمليات فى آن واحد ، وهى تناول الشاي ، وتدخين أول سيجارة ، وقراءة صحف اليوم ، وقضاء الحاجة . وقد تكونت هذه العادة عندما بدأت بحثى عن « الدكتور » ، إذ كنت مضطرا الى اختصار الفترة بين نهوضى من النوم ، ومغادرتى المنزل ، لأقضى أكبر وقت ممكن فى دور الصحف والمجلات التى كنت أتريد على مكتباتها . إلا أن جنور هذه العادة ، ترجع الى شعور داخلى بالمكان الملائم لقراءة صحفنا القومية . وككل عادة ، أصبحت تحتل ركنا هاما من حياتى النفسية اليومية ، بحيث أن التخلى عنها ، أو عن جانب منها ، يهدد اليوم كله ، على الفور ، بالتلف .

ولم أجد ما يمنعنى من الجرى على عادتى فى هذا اليوم ، خاصة وأنى كنت فى أشد الحاجة الى كل ذرة من قواى الروحية ، بالاضافة الى ما يتيح لى ذلك من الانفراد بنفسى بعض الوقت ،

فوضعت علبتى السجاير والثقاب فى جيبى ، والصحيفة تحت ابطى  
وحملت كوب الشاى فى يدى ، ومضيت الى الحمام .

توقعت أن يتبعنى كالعادة ، وهذا ما فعله ، فاستندت كوب  
الشاى الى حافة الحوض ، وواجهته موضحا ما أنتويه ، وما  
يترتب عليه من ضرورة اغلاق الباب .

تطلع الى مستهزئا : « هل نسيت أنى رأيت مؤخرتك العارية  
فى وضع أقل وقارا من قضاء الحاجة ؟ »

قلت : « لم انس ، لكن العادة جرت أن ينفرد الانسان بنفسه  
فى هذه الأمور . فهذه لحظة خاصة جدا » .

قال بشراسة : « ان من يتصدى للامور العامة يفقد حقه فى  
كل خصوصية » .

أيقنت بعث المحاولة ، فانزلت بنطولنى ، واستويت فوق  
الحلقة البلاستيكية لمقعد الحمام . ووقف هو فى فرجة الباب  
يتأملنى .

تناولت كوب الشاى وأخذت منه رشفتين ، ثم وضعت على  
الأرض بجوار قدمى ، وأخرجت سيجارة فأشعلتها . ثم بسطت  
الصحيفة وبدأت بالعناوين الرئيسية .

لكن الانسجام الصباحى المألوف لم يتحقق . فلم أجد مذاقا  
للشاى أو السيجارة ، ولم أتمكن من التركيز فى القراءة ، والأهم  
من ذلك كله أن أمعائى لم تتحرك .

وما أن يُست من جدوى الاستمرار في مكاني ، حتى نهضت واقفا وأنا أُجذب سروالي الى أعلى بسرعة ، وخطوت نحو الغرفة شاعرا بضيق واحباط شديدين . وجلست الى مكتبي ، بينما احتل هو المقعد ذي المسندين .

أشعلت سيجارة جديدة ، ومددت يدي الى البطاقات المصفوفة في صندوق الأحذية ، وجعلت أقلب بينها وأنا أشعر بعيني القصير على وجهي .

كان على أن أجد وسيلة لمواصلة البحث الذي بدأت ، ترضى عنها اللجنة وتباركها . فهل يتحقق ذلك باستبعاد جوانب معينة من سيرة الدكتور ؟ أم بالاختصار على ناحية بعينها من نواحي شخصيته الغنية ؟ وأي ناحية منها ؟ أم أن الأمر يتطلب التخلي تماما عن المنهج المبتكر الذي عرضته للجنة ، والأخذ بالمنهج التقليدي الذي يتتبع مراحل الحياة ؟

وكلما أمعنت التفكير ، استولى على القنوط . فالمنهج التقليدي حافل باخطار بالغة ، أشرت اليها في حينها . وتجلي لي من ناحية أخرى ، الترابط بين جوانب كل من سيرته وشخصيته بحيث يصعب تناول أحدها بمعزل عن الأخرى .

فكيف يمكن الحديث عن ثرائه دون الإشارة الى مصدره . وعندئذ لن يكون بوسعى تجاهل الحقائق المتعلقة بهذا الشأن ، والا أكون قد أخلت بالمبدأ الأساسي الذي بلوره بلزأك في عبارته الشهيرة « خلف كل ثروة كبيرة ، جريمة كبيرة » ، وأصبح من بعده ديدنا لكافة الباحثين المعاصرين .

ولا يمكنني بالمثل أن أتجاهل ضعة أصله ، أو دوره الوطني وعلاقته بالثورة ، أو دعوته للوحدة العربية والاشتراكية ، ونشاطه

الاقتصادي المتشعب ، أو عمالته للشركات الأجنبية ، والجوائز الدولية التي فاز بها في هذا المضمار ، ولا طمعه في أموال بتروال الخليج ، التي تذهب الى أصحابها الحقيقيين في أوروبا والولايات المتحدة عن طريق وسطاء غيره . فماذا يتبقى منه لو فعلت ؟

خاطبني القصير بغتة في لهجة ودية ، ظاهرها عدم المبالاة :

« بالمناسبة ، لقد سمعتك أمس تتحدث عن اكتشافات هامة توصلت اليها من خلال دراستك عن الدكتور ، وان لم تخنى ذاكرتي فانك قلت أنك قادر على اماطة اللثام عن الغاز كثيرة . فماذا كنت تعنى ؟ »

شعرت بالخطر ، فحاولت التهرب من الاجابة .

قلت مهونا : « الواقع انى لم أتوصل بعد الى شيء . وما أردت أن أقوله ، ولعل التعبير خانني ، هو انى مقبل على فهم العلاقة بين عديد من الظواهر المتفرقة » .

قال : « مثل ؟ »

فكرت قليلا ثم قلت : « الظواهر كثيرة ، لا حصر لها ، بحيث يصعب انتقاء احداها . خذ مثلا انتشار امراض الاكتئاب النفسى والعنة الجنسية وفتور الهمة . أو التعصب الدينى . أو انقراض السيجارة المصرية . أو عودة الكوكاكولا . أينما تطلعت ستجد ما تشاء من ظواهر » .

وابتسمت ثم أضفت : « ان الدكتور نفسه يمدنا بواحدة من أكثر الظواهر اثارة وغموضا ، وأعنى بذلك وجود كثيرين على شاكلته في كافة البلاد العربية ، رغم اختلاف الانظمة والشعارات والحكام » .



تجاهل اشارتى الى الدكتور وهز رأسه فى ازدياء :  
« واين هى العلاقة المزعومة بين هذه الظواهر ؟ »  
أجبت بمكر : « لم أقل أنى تبينتها ، فأنا ما زلت فى بداية  
البحث » .

قال وهو يضغط على مخارج الحروف :  
« أرى أنك تجرى وراء سراب ، وتتصور أموراً لا وجود لها .  
فكيف يؤدي بحث عادى كالذى تتولاه الى كل هذه الأمور ؟ »  
خبطت بيدي على سطح المكتب وقلت :  
« هذا ما أردده لنفسي طول الوقت ، بلا فائدة . ما رأيك  
فى فنجان من القهوة ؟ » .

بوغت بتغيير مجرى الحديث ، لكنه لم يلبث أن قال :  
« لا مانع » .

ثم تطلع الى ساعته واستدرك :  
« الأفضل ألا أشرب ، فقد قاربنا موعد الغداء » .  
نهضت واقفا وأنا أقول فى حماس :

« للأسف فانى لم أكن أتوقع هذه الزيارة ، ولهذا لم أأخذ  
أهيتى لها ، صحيح ان لدى قدرا كافيا من الأرز ؟ كما أن الثلاجة  
- فيما أظن - تحوى نصف دجاجة على الاقل ، الا انه من الضرورى  
- بالطبع - اعداد أصناف أخرى . حساء مثلا ، وصنف من اللحم  
أو السمك ، وآخر من الخضروات ، فضلا عن الفواكه والحلوى .  
هكذا ترى أنه من الضرورى أن أذهب - أقصد نذهب - الى  
السوق » .

قال وهو يتقدمنى نحو المطبخ : « لا ضرورة لذلك • سنكتفى  
بما لديك » •

أتيت بحركة من كتفى ، كأنما أخلى نفسى من المسئولية ،  
وأخرجت نصف الدجاجة من الثلاجة فوضعتها فى قليل من المياه  
ليزول تجمدها • وأشعلت الموقد أسفل قدر آخر من المياه • ثم  
نظفت الأرز من الشوائب وأضفت اليه المياه الساخنة بعد أن أخذت  
منها ما يكفى لاعداد فنجان واحد من القهوة ، كئى فى أمس الحاجة  
اليه •

غسلت الأرز جيدا فى المياه الساخنة ، ثم نقلته الى وعاء  
آخر ، وأضفت اليه السمن والملح والماء ووضعتة فوق النار •  
وعدت الى الثلاجة فأخذت منها بضع حبات من الطماطم والخيار  
والقلفل الأخضر • وجذبت درج أدوات المطبخ ، الذى يقع أسفل  
الموقد ، بحثا عن سكين نظيفة ، فلم أجد به غير سكين اللحم  
الكبيرة ، ذات الشفرة الماضية • أعدت الدرج مكانه وتناولت  
رشفتين من القهوة • وكان رفيقى قد وقف فى مدخل المطبخ ،  
موزعا اهتمامه بين مراقبتى ، وتأمل عناوين الكتب التى تبدأ  
صفوفها من أمام المطبخ وتمتد حتى الحمام ، فطلبت منه أن يصب  
لى الماء كى أغسل سكيننا صغيرة •

قال وهو يفعل ، مومئا الى أقرب كوم من الكتب :

« أنت اذن من عشاق الروايات البوليسية ؟ »

قلت : « فعلا » •

قال : « لكنى لا أرى لديك رواية واحدة من روايات آجاثا  
كريستى » •

قلت وأنا أجفف السكين ، وأشرع فى تقطيع الخضر :

« الواقع أنى لا أميل الا الى صنف معين من الروايات البوليسية ، وهى تلك التى تقوم على الحركة والفعل ، وأكثرها قربا الى ، هى التى يقوم فيها البطل بمطاردة المجرمين ورجال العصابات ، متحملا فى ذلك كل عنت ، وفى أغلب الاحيان ، دفاعا عن أحد الضعفاء والعاجزين ، وفى مواجهة المجتمع وطبقاته السائدة » .

قال ساخرا : « عندك ميول انسانية » .

قلت وأنا ارتشف من القهوة : « أبدا ، ان موقفى - فى رأى البعض - يعتبر ارتدادا الى فترة المراهقة . وفى رأى البعض الآخر مجرد دليل على استمرار الطفل فى كل انسان . لكنى أعتقد ان الأمر أكبر من ذلك . ان الاقبال على قراءة هذا النوع من الروايات يعكس العجز عن فعل ما هو صائب ، ويتفق مع الرغبة الطبيعية المشروعة لدى كل انسان فى أن ينال الشرير عقابه وأن ينتصر الحق » .

واستطردت بعد لحظة : « ثم أن هذه الروايات لا تتطلب مجهودا ذهنيا من القارئ ، لأنها تقوم على الحركة ، وليس معنى هذا أن روايات آجاثا كريستى تتميز بمستوى فكرى عال . فهى تقوم على الغاز ساذجة من نسج الخيال ، لا يجدر بالمرء أن يبذل طاقاته العقلية فى متابعتها ، بينما يحفل الواقع ذاته بالغاز حقيقية يحتاج الاهتمام بها الى كل ملكات الانسان » .

قال بلهجة استفزازية : « عدنا الى حديث الالغاز الغامضة والظواهر الغريبة . لقد بدأت أشك فى سلامة قواك العقلية » .

أدركت أنه يجذبني من قدمي ، لكنني لم أملك نفسي من  
الانفعال ، فلوحت بالسكين في اتجاه الصنبور وأنا أقول :

« أنت تسخر مني • لكن ما قولك في المياه السوداء التي  
تخرج من هذا الصنبور • ليست لغزا حقيقيا ؟ »

قال بهدوء : « وماذا أيضا ؟ »

اندفعت في تهور : « اللغاز كثيرة ان شئت • خذ مثلا موقف  
الدكتور من مشكلة الحرب والسلام • ففي بعض الأحاديث الصحفية  
القليلة التي أجريت معه ، وصف الحرب بأنها السبيل الوحيد  
لاستعادة الحقوق المغتصبة ، بينما أكد في أحاديث أخرى ، أن  
السلام هو السبيل الوحيد لذلك » •

قاطعتني متسائلا : « وما التناقض بين الأمرين ؟ » •

قلت : « التناقض هو أنه في الحالة الأولى - عندما  
يتحدث عن الحرب - تجده يعمل بنشاط في مشروعات تحتاج ،  
أول ما تحتاج ، الى السلام • وفي الحالة الثانية - عندما يتحدث  
عن السلام - تجده منهمكا في تأليف جيش من المرتزقة يقدمه لمن  
يدفع الثمن » •

توقفت لأطمئن على الأرز ، وأخفض النار من تحته ، ثم  
غسلت نصف الدجاجة ، وأعدت المقلاة لها •

استطردت : « اليك لغزا ثالثا اذا لم يكفك ما ذكرت • ان  
التعليمات المرفقة بالأدوية الأجنبية المباعة في بلادنا ، توصي  
باستخدام جرعات أكبر من تلك التي توصي بها المرضى في بلادها  
الأصلية • فلماذا ؟ »

وضعت ملعقتين من السمن في المقلاة ، والقيت بنصف  
الدجاجة فيها بعد أن ابتعدت قليلا الى الوراء ، كي لا يصينى  
الطشاش الساخن .

قلت ومازلت فى أوج حماسى : « يمانا تفسر أن الخريطة  
المعلقة فى الكنيسة الاسرائيلى تقف بحدود اسرائيل المقترحة عند  
شاطئ النيل الشرقى ، بينما يعلم الاسرائيليون أن أجدادهم هم  
الذين بنوا الاهرامات ، الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل ؟ »

لم يعبا بمجادلتى ، وكان مهتما أكثر بأن يستمع الى ، كأنما  
يتركنى أمد الحبل الذى سأشئق به نفسى ، وقد تنبهت فجأة الى  
ذلك عندما تراءى شىء من الاستمتاع فى احدى عينيه ، فلجأت  
الى تغيير موضوع الحديث ، منتهزا فرصة وضع الطعام على  
المائدة .

قلت وأنا أجلس فى مواجهته :

« لعك لاحظت وجود مجموعة من روايات الكاتب البلجيكى  
جورج سيمنون لدى ، والواقع أنى مغرم به وببطله المفتش ميجرية .  
ورغم أن رواياته لا تقوم على الحركة ، وهى أقرب الى روايات  
الالغاز ، الا أنها تتفوق على آجاثا كريستى ، بما تتميز به من عمق  
سيكولوجى وبعد اجتماعى . وهى تثبت أن كثيرا من النزعات  
المنافضة لسلوك المرء العادى ، تختزن فى العقل الباطن ، وفى لحظة  
معينة من تراكم هذه المخزونات ، يحدث شىء مثل القشة التى قصمت  
ظهر البعير ، فيصدر عن المرء فعل مناقض تماما لكل ما قام به من  
قبل ، ويصبح الانسان المسالم الذى لم يرتكب فى حياته عملا واحدا  
من أعمال العنف ، قادرا على ارتكاب أبشع جرائم القتل العمد » .

لم يعلق بشىء ، وانهمك بكليته فى الأكل بشهيته المعهودة .

وجعلت أرقبه فى صمت وهو يمساك فخذ الدجاجة بقبضة قوية ، ويرفعه الى فمه بيد ثابتة ، ثم ينهش لحمه فى استمتاع ، ويلوكه بين أسنانه قبل أن يطحنه فى تأن واحكام ، مركزا فى الأمرجل اهتمامه .

وخطر لى أن ما أفقده فى حياتى ، هو بالضبط هذه الطريقة فى الأكل ، النابعة من اقبال على الحياة ، وعدم التردد فى مواجهة أخطارها ، والاصرار على قهرها .

فرغنا من الطعام ، فرفعت الصحاف ، وألقيت بها فى حوض المطبخ . ثم مضينا الى الحمام ، فاغتسلنا . ولجأنا بعد ذلك الى الحجرة الداخلية ، فاستقر كل منا فى مكانه .

أشعلت سيجارة ، وما أن أخذت منها نفسين ، حتى استولى على الخمول المألوف الذى أشعر به عادة بعد الأكل . وأحسست أن الاجهاد قد بلغ بى مداه ، وأنى فى حاجة ملحة الى اغفاء قصيرة .

قلت له : « ألا ترغب فى شىء من الراحة ؟ أنا أنام عادة بعض الوقت عقب الغداء » .

أجابنى فى بطاء : « ليس من عادتى أن أنام أثناء النهار . أما أنت فلا أظن انك تملك أضعاف الوقت فى النوم » .

أدركت ما يعنيه فوجهت اهتمامى الى صندوق البطاقات . وأخذت أقلب بينها ، دون أن تعى عيناى الملتهبتان شيئا مما سطر فوقها .

أما هو فقد استرخى فى مقعده باطمئنان ، وثبت عينيه على السقف ، فى نقطة فوق رأسى ، ثم استغرق فى أفكاره تماما ، فبدأ كأنما استحال تمثالا .

شعرت بثقل رأسي ، فأملتة قليلا الى الامام ، وكان الاغراء لا يقاوم ، فأغمضت عيني ، واذا به يخاطبني فجأة في لهجة ملحة :

« هل لك أن ترافقني الى الخارج لحظة ؟ »

رأيته قد نهض واقفا في توتر ، فغادرت مقعدي مدهوشا ، وقد تسارعت دقات قلبي ، وتبعته الى الخارج ، فولج الحمام قائلا :

« أرجو ألا تتحرك من هنا حتى انتهى » .

ترك الباب مفتوحا ، بحيث أظل في مجال بصره ، واستقر على الحلقة البلاستيكية بعد أن جذب سرواله الى أسفل ، وأعطيته ظهري ، ووقفت أتمل الكتب المصفوفة في الممر ، وكنت قد اشتريت أغلبها أثناء التحضير لمقابلتي الأولى مع اللجنة ، ورتبتها حسب موضوعاتها ، فخصصت جانبا للدراسات الاقتصادية والسياسية ، تضمن بعض الابحاث النادرة عن المصالح الأجنبية في الوطن العربي ودراسة متميزة عن العسكرية في بلدان العالم الثالث . وقد احتوت الدراسة الأخيرة على فصل شيق عن جذور السادية الواضحة في سلوك قادة هذا العالم ، يمكن أن يلقي ضوءا على تعطش الزعماء العرب للدماء .

وأفردت ركنا لأهم الأعمال الأدبية الجادة على مر الزمن ، ضم كثيرا من الاسماء ، ابتداء من شكسبير وبوشكين وسيرفانتيس حتى جارسيا ماركيز ونجيب محفوظ .

وقى مكان بارز ، جمعت كل ما يتعلق بسير بعض الشخصيات العالمية ، التي وضعت بافكارها وممارساتها وتضحياتها ، المثل العامة للمسمى الانساني ، مثل النبي محمد ، وأبي ذو الغفاري ،

وأبى سعيد الجنابى ، وابن رشد ، والمعري ، وكارل ماركس ،  
وفرويد ، ولينين ، وجمال الدين الافغانى ، وطه حسين ، ومدام  
كورى ، والبرت شفائتزر ، وفوتشيك ، وهو شى منه ، وكاسترو ،  
وجيفارا ، ولومومبا ، وبين بركة ، وبين بللا ، وفرج الله الحلو ،  
وشهدى عطية ، وجمال عبد الناصر .

استغرقت فى تأمل هذه الأسماء حتى تنبتهت على صوت معدنى  
حاد ، فالتفت خلقى برغمى لأراه واقفا فى وضع غريب ، إذ تجمع  
بنظونه عند قدميه ، وتعرى سائر جسده ، بينما انحنى يلتقط  
مسدسا ضخما أسود اللون استقر على الأرض .

رفع المسدس فى حركة سريعة وأودعه بين فخذه ، ثم جذب  
بنظونه الى أعلى وهو يختلس نظرة فى اتجاهى . لكنى حولت  
وجهى عنه فى اللحظة المناسبة .

أدركت - وقلبى يخفق بشدة - سر الانبعاث الذى لاحظته من  
قبل بين فخذه . ومعنى هذا أنى لم أكن أحلم عندما تخيلت فى  
الفجر اصطدام جسم صلب بفخذى . وأوشكت أن أبتسم عندما  
رأيت أنى ، من خوفى ، قد عكست الآية الفرويدية المعروفة ، التى  
يعد فيها المسدس رمزا لعضو الذكورة .

وما ان زال أثر الجانب الفكه من الأمر ، حتى عاودنى  
الاحساس بالخطر . ولأزمنى هذا الاحساس ونحن نعود الى الحجرة  
ونأخذ مكانينا المتواجهين .

وخطر لى فجأة ، ما جعلنى أحبس أنفاسى .

ماذا لو رفضت ؟



ماذا يحدث لو أعلنت له عدم استعدادى للتخلى عن البحث ،  
أو تعديله ، وعزى على استكماله ، والوصول به الى نهايته الطبيعية  
مع قبولى لما سيؤدى اليه هذا من ضياع كل فرصى أمام اللجنة .

ووجدت أن هذا خاطر أراحنى للغاية ، كأنما أراح عن صدرى  
عبئا ثقيلا . وتطلعت اليه وأنا أتمعن الأمر ، فخيلى الى أنه أدرك  
اتجاه تفكيرى ، لأنه ابتسم فجأة ساخرا .

أثارت هذه الابتسامة قلقى ، وجعلتنى أتساءل : أيعقل أن  
يكون الأمر بهذه البساطة ؟ أنت حر توافق أو ترفض . وإذا رفضت  
قال : « حسنا . أنت وشأنك . سأتركك الآن . ولا أظن أننا سنلتقى  
مرة أخرى . وداعا » . وعندئذ أرافقه الى الباب الخارجى قائلا :  
« صحبتك السلامة » . وتنتهى الحكاية .

اذن ما ضرورة المسدس ؟

أدركت دقة موقفى ، لأول مرة ، بجلاء تام . فاشعلت سيجارة  
جديدة ، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش يدي .

أغمضت عينى ، واستعرضت تاريخى . تراءت لى المثل التى  
أمثت بها فى صباى ، ثم أسقطت منها تدريجيا ما اتضحت سذاجته  
وعدم واقعيته ، محتفظا بأكثرها أهمية وقيمة ، وما يتفق منها مع  
طبيعتى وامكانياتى ، مستميتا فى عدم التنازل عنها ، ممزقا بين  
الضغوط ، مجاهدا فى إعادة تقويمها كل حين ، وتطويرها مع  
التغيرات المتلاحقة فى عالم اليوم ، متجنبا المزالق والمنحنيات قدر  
الامكان ، متعرضا - فى سبيل ذلك - لكثير من الأضرار وما لا  
يحصى من الأخطار .

وتمثلت ما آلت اليه حياتي قبل أن أتقدم الى اللجنة ، وما  
لحق بي من مهانة على يدها • ولم أنس ، من ناحية أخرى ، أن  
البحث الذي كلفتنى به ، قد أعطى لحياتي شيئاً من المعنى ، بعد  
طول خواء •

فتحت عيني ، فوجدته ينظر الى •

تضاحكت قائلاً بصوت جاهدت أن أجعله عادياً :

« مارأيك في فنجان من القهوة ؟ أن الخمول يكاد يصرعني » •

قال : « كما تشاء » •

انطلقنا الى المطبخ • وألقيت نظرة في الطريق على مرآة  
صغيرة معلقة فوق حائط المرمر ، فألقيت عيني في لون الدم •

سألته عندما بلغنا المطبخ : « هل تمنع في أن نشربها تركية  
هذه المرة ؟ »

لم يعن بالرد وانشغل بتأمل محتويات « مكتبة المرمر » ، كما  
أسميها ، فاعتبرت موقفه بمثابة القبول •

أخذت « كنفكة » متوسطة الحجم من أحد الرفوف وعدت أسأله-  
« كيف تفضلها ؟ »

أجاب : « قليلة السكر » •

وتناول أقرب الكتب اليه ، فأخذ يقلب صفحاته ، دون أن يغفل  
عني •

لم أجد ملعقة صغيرة فوق رخامة الحوض ، فجذبت درج  
أدوات المطبخ ، وعندئذ وقعت عيناى على سكين اللحم الكبير ، ذى  
الشفرة اللامعة والرأس المدببة .

قفز قلبى بين ضلوعى ، قتماكنت نفسى ، وتناولت الملعقة التى  
أريدها ، ثم أعدت الدرج الى مكانه .

وضعت السكر والبن فى الكنكة ، ثم ملأتها بالماء ، وقلبت  
الخليط جيدا ، ووضعتها فوق عين الموقد الصغيرة بعد أن أشعلتها .

غسلت الملعقة وجففتها بتأن ، ثم فتحت الدرج ، وألقيت  
بالملعقة الى جوار السكين ، متأملا حافظه الماضية . وأعدت الدرج  
الى مكانه ببطء دون أن أرفع عيني عن السكين ، وحرصت ألا أغلقه  
تماما .

وقفت أمام الكنكة حتى بدأت التيارات تتدافع فى جوانبها ،  
وتتجمع صاعدة الى أن بلغت درجة الغليان ، فانفجرت من عقالها ،  
وأوشكت أن تجتاح الحافة ، وتسيل من فوقها .

أبعدتها بسرعة عن النار ، وأطفاة الموقد . ثم وضعت فتجانين  
بالقرب منها .

وكنت أشعر ، لأول مرة منذ زمن بعيد ، بفيض من القوة  
والراحة يسرى فى أطرافى ، ويجتاح كل كيانى .







فى هذه المرة ، كانت اللجنة مجتمعة عندما وصلت فى موعدى ،  
وأدخلنى الحارس العجوز على الفور .

وجدت أعضاءها - فيما عدا القصير بطبيعة الحال - يجلسون  
خلف الطاولة الطويلة التى وضعت بعرض القاعة ، بنفس الترتيب  
الذى رأيتهم عليه فى المرة السابقة ، يتوسطهم العجوز المتهالك ،  
ضعيف السمع والبصر .

ولفت نظرى جو الحداد المخيم الذى تجلى فى الشارات  
السوداء المشبوكة فى ياقات ستراتهم ، وأكاليل الزهور المصفوفة  
على جانبي القاعة ، تحيط بكل منها لفافة من القماش الأسود اللامع .  
وتعلوها بطاقة عريضة باسم مرسلها ، فى حروف بارزة .

جعل أعضاء اللجنة يتفرسون فى ، وهم يقلبون بين أوراق  
الملفات الموضوعه أمامهم ، بينما كنت أطلع فى فضول أسماء  
المعزين ، وتبينت فى مقدمتها الرئيس الاميركى كارتر والسيدة الاولى  
زوجته، ونائبه والتر مونديل ، ومستشاره للأمن القومى برجينسكى ،  
كما قرأت أسماء المستشار السابق كيسنجر ، وعدد من الرؤساء

السابقين للولايات المتحدة مثل نيكسون وفورد ، بالإضافة الى  
روكفلر وروتشيلد ، ورئيس البنك الدولي ماكنمارا ، ورؤساء  
الكوكاكولا ، ومديرى البنوك العالمية ، وشركات الأسلحة والليمان  
( العلكة ) والأدوية والسجائر والأجهزة الكهربائية والالكترونية  
والبتترول ، ورؤساء فرنسا والمانيا الغربية وانجلترا وبلجيكا  
وايطاليا والنمسا ، ومرسيدس وبيجو وفيات وبيدفور وبيونج ،  
وامبراطور اليابان .

ولم أجد صعوبة فى العثور على أسماء رئيس الوزراء  
الاسرائيلى بيجين ، ووزيره دايان ووايزمان ، ورؤساء الحكومات  
العسكرية فى تشيلى وتركيا وباكستان واندونيسيا والفيليبين وبوليفيا  
ورئيس زائير موبوتو ، والملوك والرؤساء العرب ، وأفراد أسرة  
شاهايران السابق ، وماما دوك السيدة الاولى فى جزر تاهيتى ،  
ورؤساء الصين الشعبية ورومانيا وكوريا الجنوبية وقادة الشعب  
الأسترالى .

وكان ثمة أسماء كثيرة من الشخصيات اللامعة فى العالم  
العربى ، من رؤساء الاحزاب القائدة ، وكبار المسؤولين عن الأمن  
والاعلام والدفاع والتخطيط والتعمير ، وعملاء الشركات الأجنبية ،  
فضلا عن ألمع « الدكاترة » وبينهم مواطنى المعروف .

وان وجهت اهتمامى أخيرا الى أعضاء اللجنة ، شعرت أن  
تغييرا ما لم أتبين كنهه ، قد طرأ عليهم منذ آخر مرة رأيتهم فيها .  
وتضاعفت حيرتى وأنا أنقل البصر بينهم ، ملتصقا بالتفسير لما  
شعرت به . فلم تكن الجهامة التى تلو وجوههم بالأمر الجديد على .  
وقد عرفت فيهم - رغم العويونات السوداء على وجوه أغلبهم -  
نفس الأشخاص الذين التقيت بهم مرتين قبل الآن .



ومع انى فشلت - للمرة الثالثة - فى احصاء عددهم ، من  
جاء عجزى عن التركيز ، الا انى كنت موقنا بأنه لم يزد أو ينقص ،  
اللهم الا فيما يتعلق بالقصير ، الذى كان مقعده الخالى - الى جوار  
العجوز - مجللا بالسواد ، بمثل ماكانت صورته المعلقة فوق الجدار ،  
اشارة الى ما انتهى اليه أمره .

ولم أكتشف السر الا بعد أن تطلعت الى العانس عدة مرات ؟  
فقد تبينت أخيرا ما غاب عنى فى البداية ، اذ كانت ترتدى الملابس  
العسكرية ذات الشارات الحمراء الموشاة بالذهب .

ولعل تأخرى فى هذا الاكتشاف يرجع الى انى ألفت أن أرى  
بين أعضاء اللجنة ثلاثة من العسكريين ، وقد سجل لاشعورى هذا  
العدد من اللحظة الأولى ، فاكتفيت بذلك ، ولم أول اهتماما  
لأشخاصهم ، شعورا منى بأنهم جميعا - بسبب ملابسهم -  
متماثلون .

أما الآن فقد دقت النظر الى العسكريين الآخرين حتى تأكدت  
من جنسيهما ، ومن شخصيتيهما . وبحثت عن الثالث حتى وجدته  
بعد مشقة بسبب التغيير الذى أضفته الملابس المدنية على هيأته .

أثارت هذه الظاهرة فضولى ، فانطلق عقلى الذى دربته  
أحداث العام الأخير على استكناه الالغاز والغوامض ، يحاول  
ايجاد تفسير لها .

كان اعتقادى فى السابق أن اللجنة مختلطة أى مدني عسكرية .  
لكن استبدال الملابس بالصورة التى رأيتها اليوم هز هذا الاعتقاد  
من أساسه ، فلم يكن يعنى سوى أحد أمرين : أما أن اللجنة تتألف  
كلها من عسكريين يرتدى بعضهم الملابس المدنية أحيانا ، أو من  
مدنيين يرتدى بعضهم الملابس العسكرية أحيانا .

وفي كلتي الحالتين لم يكن ثمة مغزى للاستبدال . حقا ان  
التخلي عن الملابس يمكن أن يعتبر مؤشرا على انكماش الروح  
العسكرية في اللجنة ، أو تقلصها ، وهو الأمل الذي داعبني لحظة  
خاطفة بالنظر الى ما اشتهر عن العسكريين من قسوة وايلاغ في  
الدماء ، وقوى منه ارتداء العانس لها ، طالما أنها - بحكم أنوثتها  
( رغم احباطها ) - أكثر انسانية . لكني لم ألبث أن رأيت في  
الاستبدال - لهذا السبب بالذات - تأكيدا للطابع العسكري بدلا من  
أن يكون تخفيفا منه .

انتزعتني رئيس اللجنة من تأملاتي اذ نطق بصوت رصين  
شابته رنة أسي ، فقال بلغة اللجنة :

« نستهل عملنا اليوم بالوقوف لخمس دقائق حدادا على  
الفقيد » .

أزاح الأعضاء مقاعدهم الى الخلف ونهضوا واقفين . أما  
أنا فلم أتحرك من مكاني ، لأنني كنت واقفا . فاللجنة لا تسمح  
لأحد بالجلوس في حضرتها .

رفعت عيني الى صورة الفقيد المعلقة على الجدار ، خلف  
الرئيس ، وثبتهما على عيني ، مشاركة مني لأعضاء اللجنة في  
مشاعرهم ، وركزت ذهني طوال الدقائق الخمس التي تتابعت ببطء  
شديد ، في محاولة مخلصنة لتذكر الطريقة التي كان يحركهما بها ،  
كل واحدة في اتجاه ، أثناء حياته الحافلة .

تتحنن الرئيس عدة مرات ، كأنه يقوم بشحن البطارية التي  
سيعمل بها صوته ثم انطلق يقول ، موجها حديثه الى زملائه بينما  
كان يتطلع الى أكاليل الزهور ، كأنما يخاطب في الحقيقة مرسلها :

« حضرات الأعضاء الموقرين • هذه إحدى المرات النادرة التي تنعقد فيها لجننتكم لتبحث أمرا يخرج عن مألوف عاداتها • وفيما يتعلق بالفقيد فانها المرة الثالثة التي نجتمع فيها بسببه • واذ لم تخنى الذاكرة فان المرة الأولى كانت في منتصف الخمسينات عندما قررنا ضمه الى اللجنة • ومازلت أذكره كما كان وقتذاك ، ممثلنا شبابا وحيوية • أما المرة الأخرى فكانت في العام قبل الماضي ، عندما احتفلنا بفوزه بجائزة « النسر الذهبي » ، تقديرا لجهوده في خدمة أهداف اللجنة •

« والواقع أن الفقيد لعب دورا هاما في الاعداد لكثير من التحولات الرائعة التي تحدث حولنا ، وفي صياغة الشكل الذي تحققت به •

« وبفضل هذا الدور تفتتح اليوم - من جديد - الامكانيات التي تراءت في الخمسينات ثم قبرت في الستينات وأوائل السبعينات ، لتحقيق أحلام البشرية والقضاء على كافة المضاطر التي تهدد النوع الانساني •

ونحن نشير بذلك الى الحلم القديم ، وهو حلم الوجدة الأرضية ، أو الولايات المتحدة الأرضية ، حيث يندمج سكان الكوكب جميعا في دولة متجانسة ، تحقق لهم الرخاء وتنشد لهم الحياة الأفضل •

« وهذا يبين عمق الخسارة التي أصبنا بها ، وأصيبت بها قضية الحضارة والتقدم ، وقضايا الاشتراكية والسلام والديموقراطية » •

توقف لحظة ليترك للحاضرين فرصة تمثل الاستنتاج الذي توصل اليه ، ثم استأنف حديثه :

« لقد حرصنا في كل أعمالنا على أن نبقى بمنأى عن أى ارتباط مباشر بالأجهزة الرسمية ، والسلطات التنفيذية ، رغم الشائعات التي طاردتنا ، والتي كان لها أساس من الصحة في حالات معدودة ، مست المبدأ المذكور وان كانت في الحقيقة تدعيما له .

« ونحن نواجه الآن حالة مماثلة أرغمتنا ، بسبب من خطورتها على أن نتصدى لمعالجتها ، فلا يخفى عليكم ما لها من دلالات بالنسبة للمستقبل .

« ومما يضاعف من دقة الأمر ، ما تتعرضون له من مشقة وعنت ، بالنظر الى أنكم تواجهون الآن ، مباشرة ، اليدين المخرجتين بدماء أحد زملائكم » .

سرت مهمة غاضبة بين الأعضاء الذين لم يرفعوا عيونهم عنى طول الوقت . وألفيت نفسى مدفوعا الى الكلام . وعلى غير ما توقعت خرج صوتى مهتزا بكلمات غير التي كنت قد أعددتها .

قلت : « أرجو أن يتسع صدركم لى كى أبسط وجهة نظرى . وانى واثق انكم من السماحة والكرم بحيث تسمحون لى أن أتحدث باللغة العربية كى أحسن التعبير عن نفسى . وتأكدوا أنى أشارككم الألم لخسارتكم ، فهى خسارة لنا جميعا » .

خاطبنى الأشقر فى حدة :

« ستتكلم عندما نأذن لك » .

تناول العجوز رشفة ماء من كوب أمامه ثم استطرد :

« لقد وضعت اللجنة نفسها منذ البداية فى خدمة الأهداف الثورية ، والمبادئ الأخلاقية ، والقيم الدينية . وساند أعضاؤها كل ما من شأنه دعم المقومات الأساسية ، وتعميق الممارسات الحرة .

« وطبيعي أننا أثرنا بذلك حفيظة عناصر الشر والهدم التي لم نأل جهدا في مقاومتنا ، وأشير في هذا الصدد الى ما أثير من ضجة مفتعلة حول الأساليب التي نستخدمها في عملنا ، والى الاتهامات التي أعذقت علينا ، بالسادية حيناً ، والديماغوجية حيناً آخر .

« وقد حاولت هذه العناصر دائماً أن تربط بيننا وبين الانقلابات السياسية والمذابح الطائفية والحروب الصغيرة ، الدائرة على قدم وساق في العالم العربي ، بل وبعض حالات الانتصار الغامضة ، وحوادث متفرقة لأشخاص اختفوا نهائياً دون أن يعثر لهم على أثر ، وآخرين سقطوا من أسطح البنايات ، أو قتلوا في حوادث عرضية للسيارات .

« الا أن الاعتداء على زميلنا يمثل تطورا بالغ الشأن في هذه المحاولات ، الأمر الذي يتطلب منكم اهتماما خاصا . فإذا ما بدت مهمتكم يسيرة لأن المجرم ماثل أمامكم ومقر بما ارتكبه من اثم ، فان هذا ليس سوى خداع السطح البراق ، وواجبكم هو أن تنفذوا الى الأعماق » .

بدأت على العجوز علامات الارهاق ، وهو يتراجع الى الوراء في مقعده ، كأنما يفسح المجال لزملائه . وكانت العانس العسكرية هي أول من تكلم منهم فخاطبتني قائلة :

« يمكنك الآن أن تتكلم » .

كان صوتها رقيقا ، لكنه لم يخف ما يكمن بين طياته من صرامة ضاعف منها اشارتها الى رد الأشقر على ، بما يتضمنه التأييد لحدثه .

والواقع أنني كنت شديد الانتباه لنظرات العيون ، وإيماءات

الرؤوس ، ونبرات الأصوات ، وبالاختصار كل بادرة يمكن أن  
استشف منها ما ينتظرني من مصير .

وليس معنى ذلك أن الشكوك كانت تساورني بشأنه . فقد  
هيات نفسي قبل مجيئي لأسوأ الاحتمالات ، إذ انى لم أنكر شيئاً  
منذ البداية ولم أحاول تبرير فعلتى . ومن ناحية أخرى فإن الندم  
لم يساورنى ، إذ غشيتنى قناعة بأن ما حدث كان لابد أن يحدث .

هكذا أعددت دفاعى على صورة اتهام موجه الى اللجنة .  
واخترت له كلمات قوية . فما دامت النتيجة محتومة ، فلا بأس من  
الاحتفاظ بكرامتى ، ومواجهة المحتوم فى اباء وشمم .

لكنى لم أكد أواجه اللجنة وأستمع لكلمات رئيسها حتى  
تبخرت صلابتى ، وخرج صوتى مهتزا ضعيفا ، وأنا الذى خططت  
له أن يدوى فى القاعة ثابتا ، شامخا ، اتهاميا .

قلت بصوت يذوب رقة ، مستخدما لغة اللجنة :

« انى أشكر لكم هذه الفرصة التى اتحتموها لى كى أتحدث  
أمامكم . وأحب أن أؤكد مرة أخرى ادراكى لعمق الخسارة التى  
حاققت بكم . فاللجنة لا تفقد أحد أعضائها كل يوم ( وابتسمت بالرغم  
منى ، لكنهم بالطبع لم يشاطرونى الابتسام ) .

« وأصدقكم القول بأنى عندما جئت اليوم لم أكن أفكر فى  
الدفاع عن نفسى . فأنا مقر بما فعلته ، وقابل لكافة النتائج المترتبة  
عليه . ومع ذلك فكلى أمل أن يشفع لى تاريخى وسلامة طويتى  
والظروف التى أحاطت بى .

« وأعتقد انكم تعرفون جيدا أنى لم يسبق أن أقدمت على عمل  
من أعمال العنف . فأنا مجرد انسان عادى ، يؤثر السلامة قدر  
الامكان . وتلك الاعمال الجسورة التى يتحدث عنها الآخرون  
ويتباهون بها ، ليست بالنسبة لى غير مادة للقصاص والروايات .

« وعندما مثلت أمامكم أول مرة ، لم يكن لى من غرض سوى أن أنال رضاكم ، ان تبينت أنه الطريق الوحيد لتطوير مواهبى والبرهنة عليها ، خاصة وأن أفضل أصحاب المواهب قد سبقونى للمثول أمامكم . »

« وإذا كانت التطورات التى جرت بعد ذلك تعود أساسا الى شغفى بالمعرفة ، فإن ما صدر منى فى حق زميلكم - أو على الأصح فى صدره - لم يكن غير رد فعل طبيعى لانسان بسيط فى حالة دفاع عن النفس » .

قاطعنى الرئيس قائلا :

« لكنك قررت - عقب الجريمة مباشرة - أنه لم يهاجمك أو بتعرض لك بالأذى » .

قلت : « هذا صحيح . لكنه كان يحمل مسدسا . ولهذا فاستخدم العنف ضدى كان واردا منذ البداية . ومن المؤكد أنى لو لم أبادر بالقضاء عليه فإنه ما كان سيتركنى فى سلام . على أنى لا أريد أن أدافع عن موقفى . وما أبغيه هو أن تضعوا فى تقديركم حالتى النفسية والعصبية ، وكونى لم أنم على الاطلاق أثناء وجوده معى ، فضلا عن الحصار الذى فرضه على » .

انحنى الأشقر الى الامام وتطلع الى بعينين ملونتين قاسيتين ثم قال :

« انن فأنت تريد أن نقبل صورة البريء سليم النية التى تحاول أن تبيعها لنا ؟ »

كان يعتمد فى حديثه دائما - كما لاحظت - أن يستخدم التعبيرات المميزة للغة اللجنة ، وهى تعبيرات كانت تثير أعجابى .

قلت : « أنا لا أبيع شيئاً ، رغم أن البيع والشراء هذه الأيام  
شاملا كل شيء ، كما أكدت لي الدراسة التي قمت بها عن  
« الدكتور » . أنا أقرر الحقيقة » .

ضحك ساخرا : « لعك تظننا من السذج . يجب أن تعرف  
أننا أدركنا من اللحظة الأولى لوقوفك أمامنا أنك تظهر غير ما تبطن .  
فقد كانت اجاباتك على الأسئلة التي طرحناها عليك دقيقة وموفقة ،  
مما أثار شكوكنا » .

« وإذا كان بيننا من ظل مترددا في القطع بأمرك ، فانه حسم  
رأيه عندما اتخذت من الدراسة المطلوبة منك ذريعة لنبش تاريخ  
الدكتور وجمع المعلومات عنه ، وأصررت على المضي في هذا العمل  
رغم التحذيرات المختلفة التي وجهت اليك » .

وجه حديثه الى أعضاء اللجنة واستطرد :

« ان كل الدلائل تؤكد أننا نواجهه مؤامرة كبيرة ، حيكت  
خيوطها بمهارة وخبث شديدين منذ بعض الوقت ، وليس الاعتداء  
على حياة الفقيه سوى حلقة من حلقاتها » .

انزعجت كثيرا لكلام العضو الأشقر ، فها هي الامور تتخذ  
اتجاهها مفاجئا لم يخطر لي ببال ، ولن يؤدي الا الى مزيد من  
الاساءة الى موقفي .

سارعت بالقول وأنا أتضحك مبديا كل ما أستطيع من مظاهر  
البراءة والطيبة بل الغفلة :

« سيادتك تملك خيالا نشيطا . ولا أظنك تتكلم جادا » .

قال بحدة : « لن تجديك المراوغة » .



قلت : « أوكد لك أنى برىء » .

قال مستنكرا : « وتراجع أيضا عن اعترافاتك ؟ »

قلت : « لم أقصد تبرئة نفسى من . . . أقصد أنه لا توجد  
ثمة خطة ، وإذا وجدت ، فليس لى بها علم » .

قال بلهجة المنتصر :

« آه . . ها أنت تقر بوجود خطة » .

قلت فزعا : « أبدا . لقد أردت فقط أن أوكد مرة أخرى . . »

أشار الى عضو يجلس فى طرف الطاولة ، فتناول هذا جهازا  
للتسجيل من تحت الطاولة ووضعها فوقها .

قال الأشقر مخاطبا أعضاء اللجنة :

« سأريكم الآن أيها السادة كيف أنه أقر - بلسانه - بوجود  
شركاء له » .

أدار العضو الجهاز فسمعت صوتا غريبا لم ألبث أن ميزت  
فيه صوت تدفق المياه وارتطامها بسطح صلب . ثم تكلم رجل معربا  
عن دهشته من لون المياه الاسود . وعرفت فيه القصير فارتعدت .

سمعت صوتى يقول : « لايد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟ »

ثم صوت القصير مستغربا : « وكيف عرفت ؟ »

وأخيرا صوتى : « لقد عرفت أشياء كثيرة فى الآونة الأخيرة » .

أوما الأشقر لمدير الجهاز فأوقفه وخاطبني ساخرا :

« أليس هذا صوتك ؟ »

قلت : « أجل . . لكن هذا لا يعنى . . »

لم يدعنى أو اصل كلامى وصاح :

« كيف تأتي لك أن تعرف هذه المعلومة التي لا نعرفها نحن عن زميلنا إلا إذا كان لك شركاء يمدونك بالمعلومات ؟ »

تدخلت العانس في الحديث قائلة :

« ليس من الضروري أن تكون المؤامرة قائمة منذ البداية .  
قربما ولدت في وقت لاحق . وهذا ما تدل عليه اشارته الى أنه عرف  
أشياء كثيرة في الآونة الأخيرة » .

ووجهت الى الحديث مستأنفة : « هذا أفضل لك ، لأنه يعنى أنك  
كنت سليم النية في البداية ثم وقعت تحت أثير العناصر الهدامة  
والمنحرفة . فاذا ذكرت لنا أسماءهم ، ربما كان لذلك أثر في تخفيف  
الأمر بالنسبة لك » .

ضغطت يدي في يأس وأنا أقول في صوت جاهدت لأجعله  
ناطقاً بالصدق :

« أرجوكم أن تصدقوني . لقد وقع كل شيء بمحض الصدفة » .

سألني أحد الأعضاء : « ألم يمدك أحد بالسكين التي  
استخدمتها ؟ »

أجبت : « أبداً . لقد كانت موجودة - كما ذكرت من قبل -  
في المطبخ »

سألني عضو آخر :

« كيف تأتي لك أن تعرف تلك الأشياء التي أشرت إليها ؟ »

أجبت : « من الصحف » .

ضحك العضو وتطلع الى زملائه كأنما لا يصدق أن تكون  
الصحف مصدراً للمعرفة .

قلت موضحاً : « لقد اضطررتي بحثي عن الدكتور الى مراجعة  
أعدادها على مدى ربع قرن . ويمكنني هذا من رؤية الوقائع

والأحداث فى ترابطها والوصول الى استنتاجات قيمة يسرت لى  
تفسير كثير من الظواهر المعاصرة » .

مال أحد العسكريين فجأة الى الامام وقال :

« هل لك أن تحدثنا عن هذه « الظواهر » كما تسميها ؟ »

قلت فى اعياء : « أعتقد أن اجابتي على هذا السؤال ، الذى  
سبق أن وجهه الى الفقيد ، موجودة فى الأوراق التى أمامكم ،  
بالنظر الى كفاءة الأجهزة التى تملكونها » .

قلب فى عدة أوراق أمامه وهو يقول :

« أجل .. أجل .. لدينا هنا بضع أمور .. الأمراض  
النفسية والسيجارة المصرية .. مياه الحنقية .. الأدوية الأجنبية  
والكوكاكولا .. لكنك لم توضح لماذا تعتبر هذه الأمور دون غيرها  
ظواهر جديرة بالالتفات ؟ »

قلت : « لم أقل هذا أبدا .. لقد ذكرتها فى معرض الاستشهاد  
بأمثلة .. فالظواهر المماثلة لا تعد ولا تحصى » .

قال : « لقد تجنبت أيضا الحديث عما تبينته بصددها ، كما  
أنتك أشارت الى العلاقة بينها دون أن توضح ما تعنيه بذلك » .

فكرت بسرعة حتى وصلت الى قرار ، فقلت بلهجة من  
استبان أخيرا أن الصدق والصراحة التامة هما أسلم وسائل الدفاع :

« سأحدث بصراحة كي أثبت لكم صدق نيتى وسلامة طويتى .  
والواقع أنى ضحية لطموحى من ناحية وشغفى بالمعرفة من  
ناحية أخرى . ولولا الخاصية الأخيرة بالذات ما وقفت هذا الموقف  
الآن » .

قاطعنى العسكرى قائلا :

« الأفضل أن تطرق الموضوع مباشرة » .

قلت : « لقد أردت فقط أن أوضح كيف انسقت الى التفكير فى هذه الأمور والبحث عن تفسير لها . الا اثنى سرعان ما تبينت أن تناول احداها بمعزل عن البقية لن يؤدي بى الى شيء . والنتيجة ذاتها تنتظرني اذا ما تناولتها جميعا ، من خلال العلاقات المتبادلة بينها ، دون أن يكون لدى المنهاج السليم للبحث .

« هكذا توصلت الى نقطة البدء ، وهى العثور على المنهاج الذى يصلح لتفسير كل ظاهرة على حدة ، وكافة الظواهر فى علاقتها بعضها ببعض » .

بدا على وجوههم الاهتمام ، وأدركت أنى أثرت فضولهم الى أقصى حد ، فتابعت :

« أقبلت أجرب كافة المناهج المعروفة دون أن أصل الى شيء . وذات يوم كنت أفكر فى الأمر عندما قلت لنفسى : ان مشكلة هذه الظواهر والالغاز أنها لا تتصل بمجال واحد من مجالات الحياة ، وانما تمتد الى مجالات متنوعة . ومعنى هذا أن « التنوع » هو طابعها الأساسى .

« وهنا تذكرت احدى النتائج الهامة التى توصلت اليها فى بحثى عن الدكتور ، وهى مساهمته فى تطوير اللغة العربية بابتكار اشتقاقات جديدة من كلمات عادية ، منها ذلك المصطلح الفذ : « التنويع » . ففیه وجدت ضالتي » .

تحدث العضو البدين لأول مرة ، وهو الذى كان يرتدى سترة بيضاء فى مقابلتى الأولى باللجنة ، وقد استبدلها الآن باخرى من القطيفة الحمراء .

قال : « هل يمكن أن تعطينا مثالا لما تعنيه ؟ »

أجبت : « هذا ما كنت أنوى أن أفعله حالا . وسأخذ لمثالي موضوعا مألوقا لنا جميعا هو الكوكاكولا . فهناك الكثير من الظواهر الغامضة التي ترتبط بتطور هذه الزجاجاة الشهيرة .

« وعلى سبيل المثال ، فقد قرأت عن حملة واسعة ثارت في الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ حول سوء معاملة ربع مليون من العمال الموسميين في المزارع التابعة لشركة الكوكاكولا . أقول المزارع لا المصانع . وقد انتقلت هذه الحملة الى التليفزيون ومنه الى قاعات الكونجرس . وقام السناتور والتر مونديل ، عضو لجنة العمال الموسميين به في ذلك الوقت ، باستدعاء رئيس الكوكاكولا ليجيب رسميا على الادعاءات الموجهة الى شركته ، أمام مجلس الشيوخ الاميركى .

« ولم تمض ثلاث سنوات ، حتى كان رئيس الكوكاكولا يشارك في اختيار مونديل هذا لعضوية اللجنة الدولية التي حدثتكم عنها في لقائنا الأول ، ثم ليكون نائبا للرئيس الاميركى كارتر .

« وفي نفس الوقت الذي نجدها متهمه بابتزاز حفنة دولارات من عمالها ، نقرأ أنها خصصت مبالغ طائلة للاعمال الخيرية والثقافية التي تمتد من ادارة جامعة كاملة الى جائزة هامة للابداع الفنى والأدبى ، ومنحة ضخمة قدمتها عام ١٩٧٧ لمتحف بروكلين الاميركى ليعمل على ائقاذ آثار الفراعنة المصريين من الانهيار .

« وبينما تمثل مياه الحنفية المنافس الوحيد لها الآن ( فهى توزع ٢٠٠ مليون زجاجاة يوميا فى العالم حسب احصائيات عام ١٩٧٨ ) ، نراها ترعى مشروعا لازالة ملوحة مياه البحر تقوم به

شركة « أكواشيم » التي اشترتها الكوكاكولا قبل عدة سنوات وبالتحديد عام ١٩٧٠ .

« أثارت هذه المتناقضات حيرتي فقامت بإبحاث عدة علمت منها أن شركة الكوكاكولا ظلت منذ نشأتها أمينة لمبدأين أساسيين وضعهما مؤسسوها العظام . المبدأ الأول هو أن يصبح كل مشترك في مغامرة الكوكاكولا غنيا وسعيدا . والمبدأ الثاني هو أن يقتصر نشاطها على إنتاج سلعة واحدة هي الزجاجة المعروفة .

« لكن رياح التغيير التي هبت في أوائل الستينات ، أرغمتها على الاختيار بين المبدأين ، وكبلا تضحى بالمبدأ الأول ، فضلت أن تقوم بتنويع منتجاتها . فبدأت بإنتاج أنواع أخرى من المياه الغازية ، ثم مدت نشاطها الى زراعة الموالح والبن والشاي ، وأصبح لها مزارع واسعة في نفس الولاية التي ولدت بها ، وهي ولاية جورجيا ، تجاور مزارع الرئيس الاميركي كارتر . وربما كان هذا الجوار هو المسؤول عن تماذيتها في سياسة التنويع بالاشتراك في الأمور العامة ، المحلية والدولية .

« ولا شك في أن النجاح كان من نصيب هذه السياسة ، ويكفي الإشارة في هذا الصدد الى عودة الزجاجة العتيدة الى كل من الصين ومصر بمبادرة وطنيين شجعان ، ذوي مبادئ ، في البلدين .

« غير أن هذا النجاح تمخضت عنه ظاهرة غريبة . فمع استخدام الوسائل الحديثة وتقليل تكلفة الانتاج بالاعتماد على عمال موسميين ذوي أجور منخفضة ، أصبحت الكوكاكولا من أكبر منتجي الفواكه الطازجة في العالم الغربي . لكنها وجدت نفسها للاسف مرغمة على القاء جانب كبير من هذا الانتاج في البحر كي لا ينهار السوق العالي .

« ولم يكن من حل لهذه المشكلة الا بمزيد من التنوع .  
فاستغلت امكانياتها الضخمة وخبرتها بميدان الزراعة ، فى رعاية  
عدد كبير من مشروعات الأمن الغذائى فى البلاد المختلفة ، منها  
مشروع لزراعة البقول فى « أبى ظبى » تقوم به شركة « أكواشيم »  
التابعة لها . كما قامت بأبحاث واسعة لانتاج شراب غنى  
بالبروتينات والعناصر المغذية الأخرى ، تعوض به المستهلكين عن  
الفائض الذى تضطر لالقائه فى البحر » .

توقفت لحظة ريثما بلغت ريقى ثم استطرقت :

« هكذا ترون أيها السادة ، كيف أن التنوع يصلح - فى  
حالة الكوكاكولا - مفتاحا لفهم أغلب الظواهر المرتبطة بها . وقد  
وجدت بالبحث ان هذا المفتاح قادر على فك مغاليق أخرى كثيرة .

« ان نظرة واحدة للواقع العربى تكفى للبرهنة على صحة  
قولى . فهى تكشف لنا من الوهلة الأولى عن ظاهرة « التنوع »  
فى أشكال الأنظمة ( وهو بالتأكيد مخطط له بالنظر الى أن هذه  
الأنظمة لا تختلف عن بعضها فى الجوهر ) وفى وسائل العمل  
السياسى ، وشعاراته وأهدافه .

« وفى وقت من الأوقات ، كانت هذه الأنظمة تتوجه الى  
شعوبها بوسيلة اقناع واحدة لا تتغير هى السجن والتعذيب . لكن  
التنوع أضاف اليها أساليب أخرى متنوعة من التصفية الجسدية  
الى التليقزيون والمجالس النيابية .

« وفى وقت من الأوقات ، كانت الأنظمة ترفع شعارات  
أساسية لا تتغير ، لكنها أدركت أخيرا أهمية تغيير هذه الشعارات  
بين الحين والآخر ، وتنويع الأهداف والتحالفات والعداوات .

« ويفضل سياسة « التنويع » اتسعت الارتباطات الوحدوية لهذا البلد - والتي كانت قاصرة في الماضي على بقية الشعوب العربية - لتشمل الآن الشعوب الاسترالية الصديقة .

« ويفضلها توفرت للمصريين الأسلحة الأمريكية والانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية التي حرّموا منها طويلا . وبعد أن كان السوق المصري قاصرا في الستينات على سيارة واحدة يتم تجميعها في المصانع المحلية هي سيارة نصر/قيات ، امتلا الآن بالماركات العالمية المختلفة ، تأتيه سياراتها مباشرة من مصانعها الأصلية .

« وبعد أن كانت مشاريع الاسكان قاصرة على خدمة الطبقات محدودة الدخل ، تقدم لها مجموعات متماثلة الشكل والحجم ، اتسعت الآن لتشمل كافة الطبقات ، واكتسبت تنوعا شديدا يمتد من المقابر الى الابراج الفاخرة .

« وتصلح السيجارة المصرية نموذجا لعرض وتفسير الظواهر المختلفة ، الغامضة أحيانا ، والتي تصاحب عملية شديدة التعقيد مثل عملية التنويع . فانتم تعرفون - ولا شك - قوة العادة وسطوة الادمان . وقد بلغ تعلق المصريين بسيجارتهم المحلية أوجه في الستينات ، عندما منعت السجائر الأجنبية ، وأمكن توحيد عدد من السجائر المحلية في سيجارة واحدة ، هي التي عرفت باسم البلمونت ، نالت توليفتها رضاء الأغلبية .

« وهي العقبة التي واجهتها عملية التنويع في ميدان السجائر . وتطلب التغلب عليها جهودا مضيئة في اتجاهات متعددة ، تعددت نتيجة لها فترات الاختفاء المفاجيء للسيجارة المصرية ، مما أجبر المستهلك على تلمس بديل أجنبي لها .



« ومن السهل أن ترى في صدمة هذا الانتقال الاجبارى المفاجيء ، علة للاصابة بمرض الاكتئاب النفسى ، خاصة وأن السجاير الاجنبية تباع بضعف ثمن السجاير المحلية . »

« ولما كان استهلاك السجاير فى البلاد المتخلفة أوسع منه فى غيرها فالأخيرة تحظر الاعلان عنها كما تنبه مواطنيها الى العلاقة بينها وبين الاصابة بمرض السرطان وتقدم لهم متعا أخرى بديلة ومتنوعة ( يكون الاكتئاب الناشئ أكثر عمقا وأصعب فى العلاج ، مما يدفع شركات الأدوية الأجنبية الى أن توصى أبناء البلاد المتخلفة باستخدام جرعات أكبر من العقاقير العظيمة المضادة لهذا المرض . »

« وهو ما يخلق مشكلة جديدة تتمثل فى الادمان على هذه الأدوية . الا أن التنوع نفسه يقدم الحل لهذه المشكلة . فيلجأ الطبيب الى تغيير الدواء باستمرار اثناء فترة العلاج ، ويساعده فى هذا التنوع الذى تتميز به هذه العقاقير . »

« ومن ناحية أخرى فان الاكتئاب نفسه هو فى أغلب الاحيان بمثابة مفترق طرق يؤدي بعضها الى العنة الجنسية أو التعصب الدينى أو فتور الهمة والقذارة ، أو الخبل . »

« هكذا ترون أيها السادة ، كيف أن منهج التنوع يصلح لتفسير ظواهر كثيرة فى حياتنا المعاصرة ، وليربط بينها فى سلسلة متينة الحلقات . »

تكلم أحد الأعضاء بلهجة مترددة وهو يتطلع الى الأشقر بين الفينة والأخرى :

« لقد عرضت وجهة نظرك بأسهاب ووضوح . . لكن ثمة ما أريد أن أفهمه . أقصد أنك لم تتعرض لموضوع مياه الحنفية . »

أجبت على الفور بلهجة تشي بالاعجاب :

« لقد أحسنت يا سيدى بإثارة هذا الموضوع لأنه يتميز بأهمية خاصة لكافة المشتغلين بالابحاث العلمية ، فهو يعطينا مثالا كلاسيكيا للاخطاء التى يمكن أن يتورطوا فيها .

« فقد أغرقتنى معرفتى بحجم التوزيع العالمى لزجاجة الكوكاكولا من ناحية ، وبأن الشعب المصرى من الشعوب المدمنة لاستخدام مياه الحنفية فى الشرب ( على عكس الشعوب المتحضرة عموما ) من ناحية أخرى ، على الربط بين عودة هذه الزجاجة الى مصر وظاهرة قلة مياه الحنفية واختفائها تقريبا بالنهار فضلا عن دكنة لونها وميله الى السواد .

« الا أنى لم ألبث أن اكتشفت أن الظاهرة المذكورة سابقة على عودة الكوكاكولا بسنوات . وبالبحث وجدت أن الحنفية ظلت منذ الستينات المصدر الوحيد لمياه الشرب الى أن طبقت سياسة التنويع وظهرت المياه المعدنية المستوردة . واكتشفت أن التغيير الذى لحق بمياه الحنفية قد بدأ منذ تلك اللحظة ، مما يتفق مع النتائج التى توصلت اليها فى حالة مماثلة هى الخاصة بمصير السيارة المصرية .

« على أن الوقوف عند احدى النتائج والقناعة بها ، من المخاطر التى يواجهها الباحثون عادة . فبمواصلة البحث ، مهتديا بالمنهاج ذاته ، أمكننى التوصل الى رؤية أعمق تكشف أيضا عن الترابط بين عدد من الظواهر .

« ذلك أن مشروعات شركة « الكوكاكولا » لرى الصحارى ظلت لفترة طويلة قاصرة على مجال واحد هو ازالة ملوحة مياه

البحر • وقد أتاحت لها حرب أكتوبر فرصة ذهبية لتنويع وسائل عملها ، باستخدام مياه النيل فى رى صحراء النقب ، وهو ما تيسر بفضل الانفاق الهائلة المحفورة أسفل قناة السويس • ومن الطبيعى أن يودى مثل هذا التنويع الى قلة المياه المنسابة من الحتفيات ، كما ان انخفاض التخزين نتيجة للسحب المتزايد هو المسؤول عن تسلك الشوائب الى المياه وتغير لونها •

خاطبنى الأشقر بلهجة ظافرة :

« أتريدنا أن نصدق أنك عرفت كل هذه الأشياء بجهدك الخاص عن طريق الصحف ؟ »

أجبت : « أجل » •

تكلم العسكمدنى أو المدنعسكرى لأول مرة ، وكان يضع بـروكة « واضحة على رأسه ، فخاطبنى فى لهجة حازمة :

« من الخير لك أن تدلى على الفور بأسماء شركائك والتفاصيل الكاملة للمؤامرة قبل أن نجبرك على ذلك • فنحن قادرون على فك عقدة لسانك • حقا اننا لا نميل - بحكم المبادئ الانسانية التى نسترشد بها - الى الالتجاء لهذا السبيل ، الا أن للضرورة احكامها • »

مالت العانس نحوى وقالت فى رقة :

« لا أظن أننا سنضطر الى ذلك • فهو سيتكلم حالما يتبين مصلحته » •

هبط قلبى بين قدمى وقلت :

« أنا أعرف الوسائل التى تشيرون اليها • ومن المؤكد أنها ستضطربنى للاعتراف بأى شىء • لكن ما سأعترف به - فى هذه

الحالة - لن يكون هو الحقيقة • أما أنتم فستظلون دائما في حيرة  
من أمرى •

ران الصمت على القاعة وجعلوا يتبادلون النظرات •  
وأدركت - كما يقولون بلغة اللجنة - أن القذيفة التي أطلقتها في  
الظلام قد أصابت مقتلا •

مال الأشقر على الرئيس وتبادل معه الهمس • وأخيرا تكلم  
الأخير :

« ربما كان من الأفضل أن تنفرد بنفسك قليلا لتتروى في الأمر  
•• يمكنك ان تخرج الآن ، وسنستدعيك بعد قليل من الوقت لنعرف  
ما توصلت اليه » •

أدركت أنهم يريدون التخلص مني ليشاوروا في حرية •  
فغادرت القاعة ووقفت الى جوار حارسها العجوز • وقدمت اليه  
سيجارة فتناولها مني في صمت ووضعها خلف أذنه ، بينما  
أشعلت أنا واحدة استنشقت أنفاسها في لهفة •

كان الدهليز خاليا ، يأتيه الضوء من نافذة كبيرة بالجدار  
المقابل ، تطل فيما يبدو على فناء مهجور • دخنت وأنا أسترق  
النظر الى الوجه الوداع المستسلم للحارس الجالس الى جوارى •  
وتمنيت لحظة أن أكون مكانه ، متمتعا بنفس الاستسلام والوداعة •  
ثم خطر لى أن حالته قد لا تكون طبيعية ، وإنما من تأثير مخدر ما •  
وسواء كان هذا هو السبب ، أو أنه أدرك حرج موقفى ، فإنه  
لم يرد على عندما حاولت أن أجاذبه الحديث ، شاكيا من حرارة  
الجو •

فرغت سيجارتي ، فالقيت ببقيتها في متفضة نحاسية الى  
جوار الباب ، واعتمدت بظهري على الحائط • كنت عاجزا عن

التفكير ، فرحت أنظر أمامي عبر النافذة شاعرا أنى أتطلع فى الفراغ .

وبعد حوالى نصف الساعة ، نهض الحارس فجأة ، كأنما بلغته رسالة سرية ، فاخفى داخل القاعة ، ثم ظهر على الفور وأشار لى بالدخول .

دخلت فى وجل وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى . ووقفت أمام العيون التى حدقت وأحدقت بى .

خاطبتنى العانس فى رقبتها المعهودة : « ماذا قررت ؟ »

قلت : « ليس لدى ما أضيفه سوى أن أرجوكم تقدير الظروف الشائكة غير الطبيعية التى أحاطت بى » .

قالت فى حدة وشراسة مفاجئتين : « أنت وشأنك اذن »

أزاح الرئيس جانبا بضع أوراق أمامه وتكلم ببطء :

« ان موقفك المتصلب يجعلنا لا نجد مبررا للرافة بشأنك أو للاستجابة لألتماسك . ولهذا فانت - فى رأينا - تستحق أقصى عقوبة مقررة . هذا هو قرارنا بالاجماع » .

ونهض واقفا فاقتدى به بقية الأعضاء وهم يجمعون أوراقهم . ثم أزاحوا مقاعدهم الى الخلف ، واتجهوا الى باب جانبي خلفهم ، فغادروا القاعة واحدا خلف الآخر .

لبثت أحرق فى ظهورهم حتى اختفى آخرهم ، وأصبحت بمفردى أنا وصورة القصير ذى الوجه القبيح ، وأكاليل العسراء من كافة أنحاء الدنيا .

ثم سمعت صوتا عند الباب الرئيسى للقاعة ، وعندما التفت أبصرت الحارس يتطلع الى متسائلا ، فحركت قدمى نحوه فى تناقل .









وقفت فى الخارج حتى انتهى الحارس من ترتيب القاعة ،  
 واغلاق نوافذها ، وما أن ظهر عند الباب حتى أسرع أقدم اليه  
 سيجارة وأشعلها له .

قلت له : « أيمكنك أن تذكر لى أقصى عقوبة لدى اللجنة ؟ »

هز رأسه باعتداد وقال : « اللجنة ليست محكمة » .

قلت مستدركا : « اعرف . ما أقصده هو أقصى عقوبة فى  
 نظرها » .

قال : « هذا يتوقف على أمور كثيرة » .

قلت : « بالطبع » .

قال : « ولكل حالة خصوصيتها » .

قلت : « مؤكد » .

قال : « فى حالتك انت - التى تابعتها باهتمام - ليس هناك  
 أقصى ولا أقصى من الأكل » .

تساءلت فى دهشة : « الأكل ؟ من يأكل وماذا يأكل ؟ »

تأملنى برهة ثم قال بتؤدة وهو ينحنى ليرفع مقعده :

« أنت تأكل نفسك » .

اختفى بمقعده داخل القاعة ، بعد أن أغلق بابها خلفه ،  
وتركنى وحيدا فى الممر الكابى الضوء . انتظرت عودته كى  
استزيد من معلوماته ، لكنه غاب طويلا ، فقررت الانصراف .  
مضيت فى دهاليز خالية ، ووقع أقدامى يتردد خلفى ، الى أن  
غادرت المبنى .

انطلقت فى الشوارع على غير هدى وأنا أنقل البصر فى  
شروذ بين وجوه المارة وواجهات المحلات ومداخل البيوت . ومع  
ذلك أمكنتنى أن ألاحظ كيف استسلمت الغالبية لأغراء البحث عن  
الثراء والسعادة . فقد كانت صناديق الكوكا كولا فى كل مكان ،  
يقف الجميع خلفها ، من بقالين وبوابين ونجارين ، بل وصيادلة .

شعرت بالعطش فتوقفت أمام أحد الباعة الذى ترك دكانا  
خالية الا من صناديق الزجاجات ، وشغل الرصيف بثلاجة كبيرة  
منزوعة الغطاء ، تكأكا حولها العطشى .

كانت الثلاجة مليئة بالزجاجات السابحة فى المياه . وبدأ  
البائع فى حال من النشوة وهو يلتقط الواحدة منها بحركة خاطفة ،  
ويرفعها نحو الايدى الممدودة اليه ، وقبل أن تلمسها يد منها ،  
يكون قد نزع سدادتها بالفتاحة الجاهزة فى يده الأخرى ، وأسرع  
يتناول واحدة جديدة .

لمحت يده تتجه نحوى بزجاجة ، فأسرعت أحول بينه ونزع  
سدادتها ، متسائلا : « باردة ؟ »

تطلع الى باستنكار وقال : « كالثلج » .

تحسست الزجاجاة بيدي فألفيتها دافئة ، فقلت :

« لا . أريد واحدة باردة » .

قدم الزجاجاة الى أحد الواقفين وهو يبدى تأففه منى • مددت  
يدى أقلب بين الزجاجات فاكتشفت أن أغلبها دافىء ، وأن  
المياه تخلو من كل أثر للثلج • وانشغل البائع عنى بملاحقة  
العطشى الذين كانوا يمسحون عرقهم ، ويزفرون من الحر ،  
فيعالجهم بالزجاجات الدافئة •

راقبتهم يرشقون السائل السحري وهم يتخسسون الزجاجات  
بايديهم ، كأنما ليتأكدوا من قدرتهم على التمييز بين الساخن  
والبارد • ثم يزدردون محتوياتها فى استسلام حتى النهاية ،  
ويدفعون الثمن الذى طالبهم به البائع ، وهو ضعف الثمن المعلن  
عنه ، بنريعة الثلج الوهمى • ودفعه كل منهم صاغرا وهو يتطلع  
أمامه فى جمود •

حولت اهتمامى الى البائع الذى كان يتحرك بنشاط وشيء  
من الشراسة • وقدرت أنه سيدرك مبتغاه سريعا • ولن تلبث الدكان  
الخالية أن تمتلئ بالسجائر والحلويات الأجنبية ثم السلع  
المستوردة الأخرى ، من شرائط وأجهزة وعلب محفوظة •

استغرقنى الأمر فلم انتبه الا وفى يدى زجاجة دافئة  
منزوعة الغطاء ، فرفعتها الى شفتى دون وعى •

دفعت الثمن الذى دفعه الآخرون ، وواصلت السير على مهل  
الى محطة الاتوبيس ، فوقفت مع الواقفين حتى جاء اتوبيس  
« كارتر » •

أما السبب فى اطلاق اسم الرئيس الامريكى على هذا النوع  
من سيارات الاتوبيس ، فلا يعود الى شكلها المميز الذى يشبه  
دودة كبيرة مكتنبة الوجه ، أو طولها غير العادى ، أو الضجة  
المرتفعة التى تحدثها أثناء سيرها ، أو ارتفاع أجز ركوبها ( خمسة  
أضعاف الأجر العادى ) ، أو كونها صنعت فى الولايات المتحدة ،

وانما الى العلامة المثبتة على جانبها ، بجوار الباب الامامى مباشرة ، وتمثل علما أمريكيا يعلو يدين متصافحتين ، تعبيرا عن الصداقة .

وهذا ، فى الغالب ، هو السر فى فرحة الناس بظهورها فى الشوارع منذ عامين أو يزيد ، إذ اعتبروها أولى بشائر الرخاء الموعود ، الذى طال بهم انتظاره . وبدوا مستعدين للتغاضى عن الضجة التى تحدثها على أساس أن الضجة شئء مألوف فى بلد متخلف كبلدنا ، وعن ارتفاع أجرها على أساس الارتفاع العام فى الأسعار العالمية ، وعن سخان العادم المنبعث منها بكثافة ، على أساس أن تلوث البيئة هى من مشاكل الدول المتقدمة وحدها ، وعن انعدام المساند والعلاقات مما يؤدى الى تأرجح الواقفين وتراقصهم ، على أساس افتقار حياتنا الجافة الى شئء من الترفيه .

الا أنه لم يكد يمر أسبوع حتى ظهرت على السيارات علامات غريبة . فقد بدأت أعمدتها الداخلية تتساقط ، والمسامير المثبتة فى جدرانها تقع . وتلفت أبوابها الأوتوماتيكية ، وانهارت أجزاء من جدرانها ، كما تمزقت الاطارات المطاطية لنوافذها ، وطارت الصواميل المثبتة للموحات القيادة فظهرت أحشاؤها .

ومع صمت الصحف عن هذه الظاهرة العجيبة ، تعددت التفسيرات بشأنها . فمن قائل أن سوء الصيانة هو السبب ، ومن أرجعه الى طبيعة الخدمة الشاقة فى بلدنا ، أو الى عدم كفاءة السائقين والامبالاتهم .

لكن الانواع الاخرى من سيارات الاتوبيس ، التى كانت تجرى الى جوار سيارات « كارتر » فى حالة جيدة ، رغم مضى سنوات على بداية تشغيلها ، ورغم أن بعضها تم تجميعه فى الورش المصرية ، القت ظلالاتها من الشك على صحة هذه الاستنتاجات

وسواء كان السبب هو الاحباط الذى شعر به الناس لعجزهم عن تفسير هذه الظاهرة ، أو ما درج عليه العامة فى كل زمان ومكان من تحوير الاسماء والصفات حتى يتلاءم نطقها مع مستوى ثقافتهم ومحدودية وعيهم ، فانهم سرعان ما دعوا السيارات المذكورة باتوبيس « طرطر » .

وجذب هذا التطور اللغوى - فى حينه - اهتمامى ، فلجأت الى المعاجم حتى عرفت أن « طرطر » من الأفعال القديمة فى اللغة العربية ، ومعناه فخر بما ليس فيه ، ومنه اشتقت كلمة « طرطور » الذى يلبس فوق الرأس أو تطلق على الوغد الضعيف ، أما «الطرطر» كاسم فمعناه راسب الخمر المصفى ، ومن هنا - فى الغالب - جاء فعل التبول فى اللغة الدارجة .

ومن الطبيعى - فى ضوء الاحداث التى وقعت لى أخيرا وأدت الى تنشيط عقلى وانشغالى بالتعمق فى الظواهر ومحاولة تفسيرها - ان اهتمامى بالأمر انتقل من الجانب اللغوى الى لب الظاهرة نفسها . فتعمدت أن استقل سيارات « طرطر » مرات عديدة ، أقبلت خلالها على فحص أجزائها ومكوناتها فحفا دقيقا لكن النتيجة ضاعفت من غموض الأمر فى نظرى .

فقد اكتشفت أنها مصنوعة من أرباب المواد وأرخصها ، بدءا من معدن الهيكل الخارجى الى المسامير المستخدمة فى تثبيت الارضيات . ولا يعقل أن تسير سيارة بهذا الشكل فى شوارع نيويورك ، ولو حتى فى أحياء الزنوج . ولا يعقل أن تكون مصنعة لنا خصصيا ( كما فى حالة الأدوية ) ، ان لا أتصور أن صناعة أقوى وأغنى دولة فى العالم يمكن أن تخرج - ولو بالقصد - مثل هذا الانتاج الهابط . أما اذا كانت الولايات المتحدة قد أرسلت لنا المحركات وحسب ، وتم تجميع السيارة فى بلادنا ، فان هذا

ايضا لا يفسر الأمر ، لأننا نعرف منذ الستينات صناعة التجميع ومازال عدد من المحظوظين يحتفظ بما انتجته المصانع المصرية وقتذاك من سيارات قوية متينة .

وعند هذه المرحلة من التفكير ، بدأ أنفى - الذى دربته روائح الصحف القديمة - يرتعش من الانفعال .

الا أن تطورات علاقتى باللجنة لم تتح لى الفرصة كى أصل الى نتائج ذات بال . وظل الأمر فى نظرى - كما فى نظر الآخرين - لغزا يستعصى على الفهم .

تذكرت هذا كله وأنا أشق طريقى بين الركاب المتدافعين ، فوق الدرج الخلفى للسيارة ، متلمسا عبثا ما أستند اليه خلال عملية الصعود . وكانت أمامى سيدة ممتلئة الجسم ، وقورة الهيئة ، ارتقت الدرج بمشقة ، وما أن استقرت فى الداخل ، وأنا خلفها ، حتى تحركت السيارة فجأة ، ففقدنا توازننا .

مدت السيدة يدها تتعلق بأحد الاعمدة المعدنية ، لكن العمود مال تحت ثقلها ، وأوشكت أن تقع على وجهها ، فتشبثت بى ، بينما كنت مشغولا باخراج الأجرة التى جعل المحصل يطالب بها فى الحاح ، وقد باعدت بين ساقى ، ملقيا بكل ثقلى على قدمى ، لاتجنب السقوط .

استعادت السيدة توازنها فتقدمت الى الامام ، وهى تتراقص برغمها ، بفعل حركة السيارة ، واهتزاز أرضيتها التى تفككت الواحها ، وانفصلت عن بعضها البعض فى أكثر من موضع .

ولأننى فى الفترة الأخيرة - بحكم انشغالى - لم أقادر منزلى كثيرا ، ولم يتح لى أن استخدم سيارات « طرطر » ولا مرة ، فقد لاحظت - على الفور - ما طرأ على مسلك ركابها من تغير .

ففى الأيام الاولى لتشغيلها ، كانت الحركة الراقصة التى  
تعذبها ، تبعث الابتسامة الخجلى على وجود الركاب جميعا ، من  
راقصين واقفين ، ومتفرجين جالسين .

لكنى تبينت اليوم انه بينما تضاعفت حدة الرقصة ، بفعل  
تخلخل بناء السيارة وتفكك حوائطها وأرضيتها ، الا أن بهجة  
الركاب بالأمر تلاشت تماما .

وتراءى لى أنهم مشغولون بأشياء أخرى ، ان كانوا يتطلعون  
سياهمين الى الاعلانات التى زينت الشوارع عن آخر المبتكرات  
العالمية فى كل ميدان ، والى السيارات الخاصة من أحدث الطرز،  
المزودة بأجهزة عديدة تحمى ركابها من الضجة والتلوث والحرارة  
والبرودة وعيون الآخرين ، فتبدو أشبه بمدروعات صغيرة .

مضيت أنقل البصر بين الوجوه الشاحبة المنهكة ، متوقفا  
عند كهل غارق فى تأملات غير سارة انعكست على ملامحه ،  
وجار له يدخن بعصبية ، وشاب مكوى شعر الرأس تدلت من عنقه  
سلسلة ذهبية ، وآخر قبضت يده فى حرص على جواز سفر ،  
وسيدة بنظارة واسعة الاطار بنفسجية اللون مثل فستانها ، تحيط  
معصمها بساعة على شكل سفينة فضاء .

وكان يجلس الى جوارها رجل مكتئب الوجه ، يحمل فى  
اعتزاز لفافة تصاعدت منها رائحة السمك ، جليبه فى الغالب  
يسعر أرخص من أحد أركان المدينة . وخلفه أوشك رجل أنيق  
الثياب على النوم ، وزغم أنه تسليح بكافة المعدات العصرية بدءا من  
النظارة ذات العدستين المدرجتى الدكنة ، والساعة المزودة بآلة  
حاسبة وتقويم سنوى ومنبه أوتوماتيكى ، الى الحقيبة  
السامسونيت .

وتوقفت عيناى عند راكبتين متجاورتين تسريلتا - بغية  
الانسحاب التام من عالمنا التعس - بثياب فضفاضة داكنة اللون،  
غطت جسديهما من الرأس الى القدم ، فيماعدنا ثقبين فى موضع  
العينين ، فبدتا أقرب الى بومتين أو اثنتين من الكائنات الفضائية  
المرعبة .

قدرت أنهم جميعا مستدلون مهانون ، يتمتعون بقدرة فائقة  
على التحمل . واستغرقنى التفكير فى هذا الجانب من الظاهرة ،  
فلم أنتبه الى ما كان يجرى بجانبى الا عندما داست قدم على  
حذائى .

كنت أقف الى جوار سيدة ممثلة فى أواسط العمر ، أوشك  
أن يلتصق بهما من الخلف عملاق فى قميص مفتوح الصدر ،  
أرسل بصره عبر النافذة متظاهرا بالشروع . وكانت السيدة دائبة  
الحركة فى محاولة واضحة للابتعاد عنه ، مما جعلها تصطدم  
بى .

أفسحت لها قليلا بقدر ماسمح الزحام . وتطلعت - كما  
فعل أغلب الواقفين من حولنا - الى الفراغ الضئيل بين ساقه  
ومؤخرتها ، فألفيته قد ثنى ركبته قليلا الى الامام ، على أهبة  
التحرش بها . ولم أملك الا أن رفعت اليه عيني فى استياء  
صريح .

وأسارع فأقول أنى شخصيا من المغرمين بذلك الجزء البارز  
من جسد المرأة ، بل ومن عشاق هذه اللحظات المختلصة فى  
الزحام . ووجهة نظرى أن هذا السلوك الذى قد يستهجنه البعض  
ليس الا بديلا عربيا ، نابعا من واقعنا وشخصيتنا المسبقة ،  
للرقص الغربى ، حيث يمارس الناس الامر ذاته متواجهين .



لكن البديل القومى يؤدى وظائف متنوعة أكثر من مجرد  
تفريغ الرغبات المكبوتة • فهو طريقة ناجحة لمكافحة الملل الناشئ  
عن الزحام والتوقف المتكرر لفترات طويلة فى الشوارع التى  
زحمتها السيارات الخاصة • كما أنه - لدى على الأقل - وسيلة  
هامة - مشحونة بالتوتر - من وسائل المعرفة •

فالمراة تظل كائنا مجهولا محملا بعشرات التكهنات ، خاصة  
إذا ما حملت وجها مترقعا معاديا ، الى أن تكشف عن نفسها فجأة  
- ككتاب - اثر لمسة ساق خفيفة ، معلنة تواطئها ، أو اعتراضها •

على أنى جعلت لنفسى قيذا هاما على هذه الممارسة يمثل  
بالنسبة لى جوهر المتعة الناتجة ، بالإضافة الى أنه يتفق واحد  
المبادئ الاخلاقية التى وضعتها لنفسى ، وهو تجنب الاساءة الى  
الآخرين • فاللمسة الأولى أو الثانية من ساقى لاحدى المؤخرات ،  
تكفى - فى حالة شخص مدرب مثلى - لأن تعين لى ما اذا كانت  
المراة تشاركنى متعتى السرية ، والا تلاشى اهتمامى بها وابتعدت  
عنها •

وهو ما أثار استنكارى فى مسلك العملاق مع السيدة بعد  
أن أبدت أكثر من مرة - ويجلاء ووضوح تامين - نقورها من  
المشروع الذى عرضه عليها بلمسات متكررة من ساقه •

ويبدو أنه كان يدين بمبادئ أخلاقية مغايرة ، لأنه لم يعبأ  
بتأقفها ومحاولتها الابتعاد عنه ، ولاحقها بلمساته مما دفعها لأن  
تحتج صراحة •

فقد استدارت اليه فجأة وقالت بصوت منفعل :

« أرجوك أن تكف ! »

بهت ثم انفجر فيها زاعقا : « أكف عن ماذا يا امرأة ؟ »

اجابته في حدة : « أنت تفهم ما أعنى » .

ران الصمت على السيارة ، وتحولت اليهما أنظار الركاب ،

وقد تراقصت في أغلبها ابتسامة تندر واستمتاع .

رفع الرجل يده وأهوى بها على وجهها في عنف وهو

يصيح : « يا فاجرة » .

انكفأت المرأة فوق الجالس بجوارها وهي تضع يدها على

خدها ، وانفجرت باكية . ولم يحرك أحد من الركاب ساكنا .

خاطبهم العملاق دون أن يقصد بكلامه شخصا بالتحديد :

« لم يبق الا هذا » .

لم يكن من عادتي أن أعرض نفسي لمواقف لا ترتفع امكانياتي

البدنية المحدودة. الى مستوى مواجهتها . لكنى كنت أغلى منذ

الصباح ، بعد أن عجزت عن التفوه أمام اللجنة بما كنت أنتويه ،

ثم لم أجن قائدة من خنوعى ، ولم أملك شيئا لبائع الكوكاكولا

الذى سرقتنى . كما أن الزحام والنحر أخذنا يضغطان على اعصابى .

وباختصار بلغ السيل الزبى .

ولا أستبعد أن أكون استمديت بعض الشجاعة من مواجهتى

لشخص واحد لا لجنة ، ومن تصورى أن كافة الركاب - الذين

يعرفون جيدا حقيقة ما حدث ، وتابعوا الأمر كله من بدايته -

سيقفون الى جانبي ، انطلاقا من اعتبارات دينية أو أخلاقية

تستنكر المسك الجنسى للعملاق ، أو اعتدائه بالضرب على امرأة

عزلاء ، أو تنتصف للحقيقة وحسب .

هكذا ألفتني أخاطب العملاق على غير انتظار :

« السيدة لم تدع عليك » .

حدق في غير مصدق وتساءل بلهجة تهديدية :

« ماذا تقصد ؟ »

قلت بثبات : « لقد رأيتك وأنت تلزق بها . ولما كانت قد رفضت الاستجابة لك ، كان المفروض أن تتركها وشأنها » .

زعل : « كاذب » ولا استبعد أن تكون متواطئا معها في شيء » .

أبدي البعض اهتماما مفاجئا بشيء ما في الطريق ، واستدار آخرون بحيث أعطوني ظهورهم . ولم ينتظر غريمي حتى يبدي غيرهم رأيه ، فقرر أن يحسم الأمر على وجه السرعة ووجه الى لكمة صاعقة ، أمابتنى في وجهي وألقت بي فوق رؤوس الجالسين .

وقبل أن أفيق من أثر اللكمة التي رجت رأسي رجا ، وجعلت الدنيا تتراقص أمام عيني ، جذبني من ذراعي ثم دفعني من جديد ، فارتطم كتفي باحد الأعمدة المعدنية ، وفقدت توازني . رأيتني أهوى على وجهي ، فمددت يدي اليسرى أمامي ، حتى لمست الأرض ، وسقطت بكل ثقل فوقها .

شعرت بالم حاد في ذراعي . وكان العملاق قد اندفع في أثرى . والسباب الموجه لأبوي ينهال من فمه ، لكن اثنين من الركاب اعترضاه . وجعل أكثر من واحد يطيب خاطره ويدعوه للهدوء . كأنما أنا الذي اعتديت عليه .

وسمعت أحدهم يقول له : « روق بالك • لبؤة ولوطى •  
والاثنان أغرتهما فحولتك فتحرشا بك • فلماذا تعكر دمك ؟ »

توقف الاتوبيس فى هذه الاثناء ، فأعاننى راكب على  
الوقوف ودفعنى نحو الباب قائلاً : « أقصر عن الشر وانزل » •

غادرت السيارة بلا وعى • ووقفت فى الطريق أتأمل  
ملابسى المنكوشة • وعندما حاولت تسويتها ، نبهنى الألم المنبعث  
من ذراعى الى الوضع الغريب الذى استقر عليه ، ملوياً الى  
الخلف عند المرفق ، وقد برزت عظام مفصله •

انطلقت أبحث عن مستشفى قريب ، يمكن أن التمس فى  
عيادته الخارجية علاجاً بقروش قليلة • ووجدت واحداً لكنى لم  
أعثر على الطبيب الاخصائى • انتظرت طويلاً حتى مللت • ولولا  
الألم الذى كان يخترق ذراعى عند أقل حركة ، لانصرفت الى  
منزلى دون أن أعبأ بوضعه الغريب •

وبعد حوالى الساعة ، اقترب منى ممرض ، وأسر الى أن  
الطبيب لن يأتى مادام قد تأخر الى هذا الوقت ، وأنه الآن فى  
عيادته الخاصة القريبة ، اذا كنت فى حاجة ماسة اليه •

دفعت له ثمن نصيحته ، وذهبت من فورى الى عيادة الطبيب  
وبعد أن دفعت خمسة جنيهات عند المدخل ، استقبلنى فى غرفة  
وثيرة ، مكيفة الهواء ، تتردد فى جنباتها موسيقى أوروبية  
خفيفة •

هون على الطبيب الأمر بعد أن فحصنى بعناية ، قائلاً أن  
المفصل انتقل من مكانه عند المرفق ، وأنه ليس ثمة خطورة بالمرّة •  
وبضغطة قوية من يده ، آلتنى ، أعاد الساعد الى مكانه ، ثم كتب  
لى بعض المسكنات •

انصرفت الى منزلى ، فارتقيت طوابقه السبعة فى اعياء .  
والتجأت الى فراشى مباشرة ، فاستسلمت لنوم عميق ، أفقت منه  
على آلام ذراعى . تناولت بعض المسكنات دون جدوى . لم يكن  
الألم شديدا ، لكنه كان ثابتا . وكانت أمامى كثير من المهام العاجلة  
التي تستلزم تركيزا فائقا ، فضلا عن ضيق الوقت المتاح لى .  
ولهذا اضطررت ، عندما استمر الألم فى اليوم القالى وعاقنى عن  
التفكير ، أن أذهب الى الطبيب مرة أخرى .

فوجئت بالمرض الذى يتولى استقبال الزبائن يطالبنى بان  
أدفع جنيها ، فقلت :

« لقد دفعت أمس خمسة جنيهات كاملة » .

قال : « أعرف . تلك كانت أجرة الكشف . وما أطلبه منك  
هو رسم الاستشارة » .

قلت متعجبا : « هذه أول مرة اسمع فيها ان الاستشارة  
بنقود » .

لم يعن بالرد على واكتفى بأن أشار بأصبعه دون أن يحرك  
رأسه ، الى لوحة فوقه على الحائط .

كانت اللوحة - التي لم أنتبه لها من قبل - تعلن أن للمريض  
الحق فى زيارة واحدة للطبيب خلال أسبوع من الكشف ومقابل  
جنيه .

قلت بانفعال : « لكن هذا هو الاستغلال بعينه » .

لم يعن بمناقشتى وإنما قال ببرود : « هذا هو نظامنا .  
وأنت حر » .

تابع الجالسون من مرضى ومرافقين لهم ، حوارنا فى  
صمت ووجوه جامدة لا تشى بحقيقة تفكيرها . وسواء خجلت من

أن أبدي أمامهم هذا الاهتمام البالغ بمبلغ تافه - في نظرهم على الأقل - مثل الجنيه ، أو كان ألم نراعى هو السبب ، فاني دفعت المطلوب في النهاية صاغرا .

وبحكم ان زيارتي للاستشارة وليست للكشف ، فقد حل دوري سريعا ، ودلقت الى خن الطبيب ثم جلست فوق المقعد المجاور لمكتبه . ولحظت على الفور شحوب وجهه ، واللمعان الغريب الذي كسى بشرته .

باغتني بالقول : « انن فاننا في رأى حضرتك مستغل ؟ »

عجبت للوسيلة التي عرف بها بما دار بيني وبين معاونه ، وتسارعت دقات قلبي على الفور ، لكنى لم أترجع وأجبت :

« هل لديك وصف آخر لما تفعل ؟ »

قال : « كنت اعتقد انى أودى عملا انسانيا » .

قلت : « أسمع يا دكتور . لقد تقاضيت منى خمسة جنيهات كاملة على خدمة لا تكلف غير قروش معدودة بالمستشفى الحكومى حيث مكانك الطبيعى . فاین الانسانية في ذلك ؟ »

قال متبسطا : « عيادة كهذه تتكلف كثيرا . كما أنه لا يوجد مستشفى واحد يمكن الاطمئنان الى خدماته » .

قلت في انفعال : « انت وأمثالك الذين خريتم المستشفيات الحكومية لصالح دكاكينكم الخاصة . لقد تأمرتم لتنهبوا من يسوقه حظه العاثر اليكم » .

شد قامته وقال في ترفع : « من حقى ان أحدد أجر الخدمة التي أقدمها حسبما يتراءى لى » .

قلت : « وأنا واحد ممن يحق لهم أن يحصلوا مجانا على خدمات سيادتك » .

رفع حاجبيه في دهشة : « كيف ؟ » .

ملت على المكتب وقلت وأنا ألوح بندراعى السليمة في إشارة شملته كما شملت اثاث الغرفة وأجهزة التكييف والموسيقى والتطبيب :

هذا كله لم يتحقق بفضل عبقريتك الفذة . فأنت وأمثالك تستفيدون من مجموعة من الامتيازات المتوارثة التي سلبت مني ومن غيري . ومن آبائي وأجدادي ، وآباء غيري وأجدادهم على مر الزمن . وبالإضافة الى ذلك فأنت من الجيل الذي تعلم مجاناً على حسابي وحساب غيري » .

نهض واقفا وهو يرتعش من الانفعال :

« كفى . لا أريد مناقشتك . أرجو أن تغادر عيادتي فوراً . فأمثالك لا حق لهم في خدماتي » .

ضغط بيديه جرساً مثبتاً الى مكتبه فقلت :

« انى اعترف بأنى أخطأت فى المجيء إليك . وحالما ترد الى الجنيه الذى دفعته اليوم سأذهب » .

قال بترفع : « ان وقتى ثمين وقد ضيعت جزءاً كبيراً منه ، ولهذا فليس لك شىء عندي . وإذا لم تذهب الآن فسأطلب من الممرض أن يلقي بك الى الشارع » .

كان الممرض الذى ظهر عند الباب طويلاً غريضاً متين البناء . وخفت أن يتكرر معى حادث الأوتوبيس . فنهضت واقفاً فى تناقل وأنا أقول :

« سأذهب . لكنى سأعرف كيف آخذ حقى . فما زال هناك شرطة وقضاء » .

لم أكن أعنى ذلك بالطبع ، لكنها كانت صيغة لحفظ ماء الوجه ، أعاننتى على مواجهة نظرات الاستهجان التى استقبلنى بها المنتظرون فى الخارج ، والاهانات التى شيعنى بها الممرض حتى أصبحت فى الطريق .

مشيت وأنا أغلى ولا أكاد أتبين شيئاً ما يحيط بى . ولم أنتبه الى نفسى الا عندما اصطدم أحد المارة بذراعى فسألنى . عندئذ اتخذت طريقى الى منزلى وأنا أتمس الخطفى بصعوبة بين أكوام السلع المستوردة وصناديق الكوكاكولا التى شغلت الأرصفة ، والأتربة والحفر والقاذورات التى لا يجد أحد الدافع لأزالتها أو حتى الشكوى من وجودها .

جعلت أنقل البصر بين الناس التى زحمت الطرقات ، مقبلة فى حماس على الشراء وقزقزة اللب وسماع الاغاني . ولت نفسى على أن رعبى من فكرة الألم قد عرضنى لهذا الموقف المهين لدى الطبيب ، بينما أن الأمر - بحكم المصير المقدر لى - لم يكن يتطلب كل هذا العناء .

اشتريت طعاما يكفينى لعدة أيام ، وقلت للبواب أن يبلغ كل من يسأل عنى بانى سافرت ، ثم صعدت الى مسكنى .

كان ثمة أمور لايد من الانتهاء منها سريعاً . وقد أقبلت على انجازها رغم الآلام التى كان يسببها تحريك ذراعى . فتصفحت أوراقى القديمة ورتبتها . وقضيت لحظات ممتعة - رغم ما شابها من أسى - فى مراجعة ما حققته من انجازات ، وما أثارته من صدئ وتعليقات . وأعاننتى الاستثمارات الحكومية القديمة وبطاقات السفر والرسائل والايصالات والفواتير على تتبع المسيرة التى قطعتها منذ وقفت على قدمى .

وتوقفت عند صورة أبى ، وتمثلت التركة المثقلة من الآلام والسلبيات والاوهام التى خلفها لى ، والآمال التى علقها على ،



ولم يسعفه الزمن ليشهد تحققها • وحمدت الله أن هذا لم يحدث ،  
كى لا يرى مالى •

وقضيت يوما كاملا أقلب فى مجموعة من الصور لأشخاص  
عبروا طريق حياتى ، ونساء ارتبطت بهن ، أو علقت عليهن آمالى  
فى مراحل مختلفة • وتمعننت فى العوامل التى تكسرت عليها هذه  
الآمال ، بحثا - للمرة الأخيرة - عن مكن الخطأ •

ومن الطبيعى أن يثير هذا الاهتمام مشاعر معينة • فلجأت الى  
ما لدى من كتب إباحية ، واستعنت بكل من خيالى وذكرياتى ،  
لأعيش لآخر مرة تلك اللحظات المتوترة الرائعة ، التى تدب فيها  
الحياة فى كل خلية من خلايا الجسد ، وتصبح اللمسة لأى موضع  
منه مبعث رجفة ولذة متجددتين تلحان على التكرار •

وتفرغت فى اليوم التالى لمفكراتى القديمة • وما دونته بها فى  
لحظات مفعمة بالمعاناة ، والأمل ، بدت فى حينها كثيفة ، وان بدت  
الآن باهتة ، رغم ما خلفته من شجن • وطالعتنى على الصفحات  
التي بدأ لونها يتحول الى الصفرة ، المشروعات الكبيرة التى خططت  
لها بحماس فى حينها ، والاحباطات المتوالية التى واجهتنى •

وقابلتنى سطور عديدة نقلتها فى مناسبات مختلفة عن  
قراءاتى ، يتحدث أغلبها عن الطريقة المثلى للحياة • ولبثت  
ساعات أحرق فى هذه الابيات لماياكوفسكى ، التى قالها فى  
الغالب قبل قليل من نهايته المأساوية :

أقسم ألا أتحدث بعد الآن باللسان المشين للتعقل والحصافة •

.....

الآن يمكن للمرء أن ينهض وينطق ، فتتردد كلماته عبر  
العصور والتاريخ والبشرية جمعاء •

ذكرنى المصير الذى انتهى اليه قائلها بمأساتى ، فاستعدت  
ماجرى لى من وقائع ، منذ أعددت نفسى لأول مقابلة مع اللجنة •  
وتتبعت مراحل التجريبية ، وكيف فتحت عينى - تماما - على  
الحقيقة الشاملة المرعبة ، رغم أن ذلك تم بعد فوات الوقت •

وعندما استعرضت تفاصيل المقابلة الأخيرة ، ندمت على  
تخاذلى ، وعلى أنى فقدت أمام جماعة اللجنة ، الذلاقة والجرأة  
اللتين لازمتانى فى تعاملى مع أشخاص منفردين مثل القصير  
وعملاق الاتوبيس والطبيب •

شغلنى تحليل هذه الظاهرة ، حتى رأيت بعد أمعان أن  
جذورها تضرب بعيدا فى الماضى ، منذ أول امتحان خضسته  
وعمرى بضع سنوات ، وكل مرة بعده ، وقفت عاريا أمام الأعين  
الباردة اللامبالية لأشخاص نوى بطش ، ينتمون الى عوالم  
مختلفة عن عالمى ، وتجرى حياة كل منهم فى مدار مستقل لايتوقف  
بأى شكل على نتيجة المواجهة القائمة بينى وبينهم ، عكس الأمر  
بالنسبة لى •

تمنيت لو وقفت أمام أعضاء اللجنة من جديد ، لأسمعهم  
كلمتى • وتخيلت نفسى أواجههم فى ثقة • فمضيت أنتقى عباراتى  
فى دقة وعناية • وجرفتني الرغبة ، فقامت من فورى ، ووضعت  
شريطا خاليا فى المسجلة ، وأقمتها فوق المكثف ، ثم وقفت أمامها ،  
كما لو كانت لجنة •

تردد صوتى قويا ثابتا فى الغرفة الخالية وأنا أقول :

« لقد ارتكبت - منذ البداية - خطأ لا يغتفر • فقد كان من  
واجبى لا أن أقف أمامكم ، وإنما أن أقف ضدكم • ذلك أن كل  
مسعى نبيل على هذه الأرض يجب أن يتجه للقضاء عليكم •

« وأسارع فأقول انى لست من السذاجة بحيث أتصور أن هذا الهدف لو تحقق سيكون نهاية المطاف ، إذ من طبيعة الأمور أن تحل مكانكم لجنة جديدة ، ومهما كان حسن نواياها وسلامة أهدافها ، فلن يلبث الفساد أن يتطرق إليها ، وتصبح عقبة بعد أن كانت علامة ، ويتمتم ازلتها بعد فترة من الوقت ، طالت أم قصرت . »

« لكنى تبينت من استقرائى للتاريخ والحالات المماثلة ، أنه عن طريق هذه العملية بالذات ، عملية التغيير والاحلال المتكررة ، ستفقد جماعتكم تدريجيا ، ما لها من سطوة ، بينما ترتفع مقدرة أمثالى على مواجهتها والتصدي لها . »

«الا أنى للأسف لن أكون هنا عندما يحدث ذلك ، بسبب المصير المقرر لى ، والذي يعود فى احد جوانبه الى طموحى ، الذى تجاوز امكانياتى ، وسعى المهوروس وراء المعرفة ، وفى جانب آخر الى تورطى فى محاولة متهورة - لكنها كانت حتمية - لتحدى لجننتكم فى وقت ومكان غير مناسبين . لكن ما يخفف من أسفى هو ثقتى بما سيحدث ، مهما طال الوقت ، فهو منطق التاريخ وسنة الحياة . »

لم أبالغ فى كلمتى ، ولم يجرفنى تيار الحديث أمام المسجلة فالآن وأنا أتأمل كل شىء بعين متجردة ، وأحسب المكاسب والخسائر بنظرة شاملة ، أجدنى غير نادم على المصير الذى ينتظرنى . وبالمقارنة مع مصائر آخرين - من جيلى على الاقل - لا يوجد ما يعيبه . ما يبعث على الأسف حقيقة أن اليوم العظيم سيفوتنى . لكن هذا نفسه لم يكن ذا قيمة كبيرة ، طالما أنى موطن بمجيئه .

واذ وصلت الى هذه النتائج ، شعرت بصفاء عقلى غريب ،  
وامتلا صدرى بسكينة نادرا ما عرفتھا . ومرت بى لحظات من  
النشوة لم أعهدھا الا عندما أصغى للموسيقى . وأردت أن يطول  
بى أمد هذه اللحظات حتى النهاية فلجأت الى ما لدى من تسجيلات  
موسيقية أعتز بها ، فقلبت بينها طويلا ، مستبعدة ما يتميز منها  
باللحان العذبة الرقيقة ، كما لدى موتسارت وجريج ، أو يغلفه  
الشجن كمؤلفات شوبرت وتشايكوفسكى . وعفت نفسى بالمثل عن  
العوالم الساحرة لبرايوز وسكريابين ، والقأمية الرصينة لمالر  
وسيبيلوس .

وقع اختياري أخيرا على أعمال سيزار فرانك ، الذى يتحول  
جلال الشك عنده الى نعمة اليقين ، وكارل أورف الذى يتفجر  
بالحيوية والصراع ، وبيتهوفن الذى يتغنى بالانتصار والفرح  
بعد الألم ، وشوستاكوفتش الذى يمزج كل هذا بالسخرية .

كان الظلام قد حل ، فوضعت تسجيلات هؤلاء المبدعين العظام  
فى متناول يدى . وأخذت مكائى المفضل خلف المكتب ، عند الحائط  
الأخير لمسكنى .

مضيت أنصت للموسيقى التى ترددت نغماتها فى جنبات  
الحجرة . وبقيت فى مكائى ، مطمئنا منتشيا ، حتى انبج الفجر .  
عندئذ ، رفعت ذراعى المصابة الى فمى ، وبدأت أكل نفسى .

« انتهت »

ابريل ١٩٧٩ - ديسمبر ١٩٨٠  
مصر الجديدة





## للمسؤولف

روايات :

### ++ تلك الرائحة :

الطبعة الاولى ( صودرت ) مكتب يوليو ، القاهرة ، ١٩٦٦  
الطبعة الثانية ( غير كاملة ) دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ،  
١٩٦٩ .

الطبعة الثالثة ( غير كاملة ) كتابات معاصرة ، القاهرة ، ١٩٧١  
صدرت بالانجليزية مع أربع قصص قصيرة ، عن دار  
Heinemann اللندنية فى سلسلة African Authors  
١٩٧١ ، ثم أعيد طبعها فى ١٩٧٨ ، وصدرت فى سلسلة  
Arab Authors عن نفس الدار فى ١٩٧٨ .

### ++ نجمة أغسطس :

الطبعة الاولى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٤ .  
الطبعة الثانية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٦ .  
الطبعة الثالثة ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٠ .

رحلات :

### ++ انسان السد العالى :

( بالاشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد ) ، دار الكاتب  
العربى القاهرة ، ١٩٧٦ .

ترجمة :

### ++ العدو :

للروائى الاميركى جيمس هروت ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ،  
١٩٧٥ .

### ++ الحمار :

للروائى الالمانى جونتر دى برون ، دار ابن رشد ، بيروت ،  
١٩٧٧ .

**++ معونة أم استعمار جديد :**

للاكاديمي السوفييتي ارنولد انوخكين ، دار الثقافة الجديدة ،  
القاهرة ، ١٩٨٠ .

**++ ولد لا يعرف الخوف :**

للاخوان جريم ، الورشة التجريبية لكتب الاطفال ( القاهرة )  
والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ( بيروت ) ١٩٨١ .

**روايات علمية :**

**++ عندما جلست العنكبوت تنتظر :**

دار الفتى العربي ، بيروت ، ١٩٨٠

**++ اليرقات في دائرة مستمرة :**

دار الفتى العربي ، بيروت ، ١٩٨٠

**++ يوم عادت الملكة القديمة :**

دار الفتى العربي ، بيروت ، ١٩٨٠



يصدر قريبا

عن

مطبوعات القاهرة

● المقهى الزجاجى والأيام الصعبة

روایتان لمحمد الیساطی

● لیلة الغضب والدم

رواية لإبراهيم عبد المجيد

● مختارات من القصة المصرية القصيرة

تقديم ادوار الخراط

---

رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٢٤١١

---

---

دار ماجد للطباعة  
٢ ش بلال - القصيرين - الشرايية



إمتنت رجولته أكثر من مرة ، لكنه ظل متشبثا بكل ما يبقيه راغبا في الحياة . . . .

لهذا قبل المهمة التي كلفته بها "اللجنة " . لكن البحث عن "الدكتور " قاده الى اكتشافات مثيرة ، وتفسيرات لاغاز أعيت الكثيرين ، مثل علاقة الملك خوفو السرية بينى اسرائيل ، والعنة الجنسية ، والتعصب الدينى ، وصناعة الملايين ، وعودة الكوكاكولا !

كما قادته الى جريمة قتل .

. . . . والى مصير لا يحظر ببال أحد !

رواية جريئة مشوقة ، ترصد بفتية عالية نمو العلاقات الاجتماعية والاقتصادية خلال مرحلة المد القومى وبعد انحساره ، وما أفرزته من طبقات وسلطات ، وتمزج المعقول باللا معقول والواقع بالكاريكاتور الساخر ، والحدث بالتأمل ، فتعري الواقع الراهن على حقيقته .

أثارت روايته الأولى " تلك الرائحة " ، التي صدرت فى منتصف الستينات ، عاصفة من النقد إنتهت بمصادرتها ، بسبب خروجها على المؤلف المتعارف عليه فى الكتابه التقليديه ، حيث تصبح أخطر شؤون الحياة ، من الجنس الى السياسة ، محظورات محرمة .

وواصل " صنع الله ابراهيم " طريقه فى التمرد على الأوضاع البالية فى التجربة الاجتماعية والأدبية على السواء ، فقدم " نجمة أغسطس " ، المتميزة فى موضوعها وبنائها ، متخذاً من بناء السد الى المجتمع وأزمته من ناحية ، ولتطوير الأخرى ، ثم أتبعها بعدد من الروايات إستحدثت طريقاً جديدة فى الكتاب



Bibliotheca Alexandrina



0647227



٧٥ قسراً